دور العوامل الاجتماعية في المعرفة العلمية (بحث سوسيولوجي في علم اجتماع العلم)

أ.م.د. طاهر حسو الزيباري*

تاريخ التقديم: 2008/4/15 تاريخ القبول: 2008/7/17

المقدمـــة

يعد التحليل المعرفي مدخلا مناسباً لتحليل التطور الذي شهده العلم في أي زمان ومكان. ويأتي العلم متعانقاً مع الأبستمولوجيا (المعرفة) والزمان الذي وجد فيه. وإذا كنا نربط بين العلم والمعرفة والتاريخ، فإننا أيضا نربط بينهما وبين التحليل اللغوي والسيكولوجي والسوسيولوجي والانثروبولوجى. فقراءة أي نص علمي لايمكن أن تختزل التأويلات والتفسيرات اللغوية والتحليلات الذاتية وحتى الثقافية، تلك التي تفرض عملية الوقوف على الإطار المنطقي والمعرفي منها، والواقع إن تناول ماسبق، هو محور اهتمام علم اجتماع المعرفة ويفرض علينا تناول الأفكار المتصلة بالمعرفة من خلال رؤية بنائية نقدية.

مؤسس علم الاجتماع الحديث، أوكست كونت (1798–1857) Auguste Conte أول عالم اجتماع يؤكد أثر المجتمع في تشكيل أنواع معينة من المعرفة، حينما وضع قانونه المشهور(قانون الحالات الثلاث)، إذ ربط بين تشكيلات اجتماعية معينة وأنواع محددة من المعرفة، هي المعرفة اللاهوتي ة (الدينية)، والفلسفية (الميتافيزيقية) لينتهي أخيراً بالمعرفة العلمية (الوضعية). ويفهم من هذا القانون أن (كونت) اعتبر الفكر(المعرفة) محرك المجتمع، صانعه ودافعه، ودعا إلى التخلص من كل تأملات ميتافيزيقية أو لاهوتية، تستهدف الاستعانة بمناهج العلوم الطبيعية للوصول إلى نتائج مماثلة أو مقارنة لما توصلت إليه

* قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب/ جامعة صلاح الدين.

العلوم الطبيعية في فهم القوانين التي تنظم حياة المجتمعات والأفراد. وهذا المسلك سيوصلنا إلى الحالة الوضعية للعلم.

وتلقى الاتجاه الوضعي الأمبريقي في علم الاجتماع دفعة قوية من بحوث مدرسة شيكاغو في الولايات المتحدة .فقد عمدت جامعة شيكاغو إلى تشجيع هذا الأسلوب الجديد في البحث.وكان لجامعة نيويورك أيضاً الفضل باستخدام المناهج الكمية في البحث الاجتماعي. ويرجع فضل ذلك إلى عالم الاجتماع فرانكلين جيدنز (1855–1931).

أما عالم الاجتماع المعاصر (هابرماس، 1929 ...) وريث تركة مدرسة فرانكفورت النقدية، فقد حدد ثلاث مصالح معرفية مشتركة لدى جميع البشر، في كتابه المعنون (المعرفة والمصالح البشرية، 1968). المصلحة الأول، مصلحة تقنية فنية تتمثل في معرفة البيئة المحيطة وفي السيطرة عليها والتحكم فيها. وهذا الجانب هو المسؤول عن قيام العلوم الطبيعية ذات التوجه الامبيريقى أساساً. ثم هناك مصلحة عملية تتمثل في قدرة كل منا على فهم الآخرين وعلى العمل المشترك والتعاون في مناشط الحياة. وهذه المصلحة هي المسؤولة عن قيام علوم التأويل.وهناك أخيراً مصلحة تحررية تنطوي على الرغبة في تخليص أنفسنا من كل ما يعمل على تشويه عمليات الفهم والاتصال. وهي المصلحة المسؤولة عن قيام العلوم النقدية كالتحليل النفسي.

وهذا الاهتمام ببعد القوة والمعرفة في المجتمع كان علامة على اهتمام أوسع واشتغال أكثر تركيزًا بمفهوم العلم، خاصة الاجتماعي، في المجتمع المعاصر، وإبراز خصوصية ذلك العلم.مما يخلق لهذا العلم دوراً جديداً يختلف عن دوره حتى الآن، خاصة نقد الاستخدام اللاأخلاقي لنتائج العلوم الطبيعية.

ومن هذا المنطل ق، فإن البحث ينظر إلى أن النظريات والاكتشافات العلمية الطبيعية المعاصرة، تخضع لتأثير العوامل الاجتماعية البشرية المؤثرة في مضامين المعرفة. كذلك يخضع العلم للتأثير الإنساني، بما فيه شكل المجتمع، والمصالح السياسية، والمصالح الاقتصادية، والمصالح الاجتماعية، وربط العلم بالنظرية الأخلاقية.

وحريّ أن نقول إن العلوم الطبيعية – لاسيّما الفيزياء – تتأثر بالقوى الاجتماعية، وكذلك تركز الدراسة على علم اجتماع العلم بوصفه مؤسسة اجتماعية. كما أن البحث سوف يتناول الاعتراضات على دور العوامل الاجتماعية في مضامين المعرفة العلمية ومناقشة هذه الاعتراضات. وسيتناول البحث المحاور التالية:

أولاً: العلاقة بين العلم والمعرفة:

تعددت مفاهيم العلم، وليس هناك اتفاق كامل بين المشتغلين في العلوم الاجتماعية والطبيعية على السواء حول مايعنيه مصطلح science. وهناك وجهتان من النظر فيما يتعلق بمفهوم العلم:

الأولى: يمكن وصفها بأنها وجهة نظر إستاتيكية Static (النظرة السكونية) تعدُّ العلم تراكماً للحقائق والنتائج التي يسفر عنها نشاط العلماء.

والثانية: ديناميكية Dynamic بالطبع لأنها تهتم بـ (العملية) والطريقة أكثر من اهتمامها بالنتائج في حد ذاتها.

ولاشك أن التفاعل ضروري بين وجهتي النظر، ذلك أن التقدم العلمي هو نتاج خالص لتراكم المعرفة ولتطور الطرق والأدوات اللازمة لاكتساب هذه المعرفة.

وقد عرف العلم، بأنه بناء منظم من المعرفة، يبدأ بالواقع وينتهي إلى تفسيره، وأن العالم هو في المحل الأول إنسان يسلك طريقا خاصاً في الحصول على هذه المعرفة، أو يتبع برنامجاً محددا يؤدي إلى الكشف عن الحقيقة، مستنداً إلى مجموعة من القواعد، وهذه القواعد هي ماسنطلق عليه مصطلح المنهج العلمي[1].

(1) محمد، محمد علي، علم الاجتماع والمنهج العلمي، دراسة في طرائق البحث وأساليبه، ط 2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1980، ص100.

أما قاموس (ويبستر) [1]. فقد عرف العلم، بأنه المعرفة المنسقة systematic Knowledge التي تنشأ عن الملاحظة والدراسة والتجريب، والتي تهتم بغرض تحديد طبيعة أو أسس أو أصول ما تتم دراسته، إنه فرع من فروع المعرفة أو الدراسة خصوصاً ذلك الفرع المتعلق بتنسيق وترسيخ الحقائق والمبادئ والمناهج بوساطة التجارب والفروض.

أما المعرفة، فهي عبارة عن مجموعة المعاني والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به[2].

لقد تم الحصول على المعرفة على مراحل وهي:[3]

1. مرحلة المعرفة الحسية والخبرة الذاتية (التجريبية).
2. مرحلة الاعتماد على مصادر الثقة والتقاليد السائدة، كالاعتماد على الحكماء القدامى في تحليل بعض الظاهرات.
3. مرحلة التأمل والحوار، وهي مرحلة التدليل العقلي والمنطقي، فقد توصل أرسطو بوساطة التفسير العقلي من المعروف إلى غير المعروف باتباعه عملية استدلالية أو استنتاجية Deductive Process تعتمد في أساسها على القياس المنطقي syiogism.
4. هي مرحلة المعرفة العلمية والتحقيق العلمي scientific Inquiries أي مرحلة وضع الفروض وإجراء التجارب ثم استخلاص النتائج. وتعد هذه الطريقة أكثر دقة إذا أمكن تحويل المعلومات المتعلقة إلى تعبير كمي Quantitative Expression.

---

(1) Webster, S. Twentieth Century Dictionary of English Language, 1960, p.1622

(1) حسن، عبد الباسط محمد، أصول البحث الاجتماعي، ط 3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971، ص16.

(2) دويدري، رجاء وحيد، البحث العلمي _ أساسياته النظرية وممارسته العملية، دار الفكر، دمشق، 2000، ص26.

وفي ضوء ماسبق، فإن المعرفة العلمية تشتق طبيعتها من العلم كنسق إدراكي. والعلم هو المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التي تم التوصل إليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمي، وهي ذات طبيعة تراكمية تمكن الإنسان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية. ويتميز العلم أو المعرفة العلمية بالتحديد ووضوح الأهداف والابتعاد عن مناقشة المسائل الفلسفية التي ليس لها أهمية أمبيريقية.

فإذا كانت (المعرفة قوة) – وهي المقولة المشهورة للفيلسوف الانكليزي (فرنسيس بيكون) (1561–1626) Francis Bacon في القرن السادس عشر، وهو أبو العلم الحديث، بمعنى أن العلم يزيد من سلطان الإنسان على الطبيعة، ولم يدر في ذهنه أن يكون العلم مصدراً للهيمنة وليس مصدراً للسعادة – فإن هناك بعض الدول تحاول أن تتحكم في المعرفة بغية إحراز أهداف سياسية[1]. كما هو الحال في الحضارة الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية حيث تضع حدودا على التزامل والتعاون العلمي الدولي، لكي تمنع الدول الأخرى من اكتساب المزيد من المعرفة العلمية والقوة التكنولوجية.

ثانياً: سوسيولوجيا المعرفة:

يعود ظهور مفهوم علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge إلى ثلاثة منظرين اجتماعيين رئيسيين هما كارل ماركس (1818– 1883) Karl Marx وأميل دوركايم (1858–1917)Emile Durkheim. وكارل مانهايم (1893–1947) Karl Mannheim على الرغم من أن هؤلاء المنظرين كانوا يعملون في أوقات مختلفة وأنهم ينتمون إلى تقاليد ثقافية مختلفة إلا أنهم يرون المعرفة نتاجاً للبنى الاجتماعية والتفاعلات الاجتماعية.

(1) رزينك، ديفيد ب. أخلاقيات العلم، ترجمة عبدالنور عبد المنعم، عالم المعرفة الكويتية، العدد(316)، 2005، ص139.

يرى جورفيتش Q. Qurvitch، أن علم اجتماع المعرفة يقوم بدراسة الترابطات الوظيفية التي يمكن قيامها بين الأنواع المختلفة للمعرفة، بحيث تشمل العلاقة بين الأطر الاجتماعية والمعرفة، والعلاقة بين المرتبة المتغيرة لأنواع المعرفة، دور المعرفة وممثليها في شتى أنماط المجتمعات، تأثير الأطر الاجتماعية في توجه المعرفة وسماتها، تأثير المعرفة في حفظ أو انفجار البنى الاجتماعية[1].

على الرغم من أن ماركس لم يشرع بكتابة علم اجتماع المعرفة الذي نفهمه اليوم، ولكنه مع هذا عترف به بوصفه أحد أشهر المنظرين في هذا الموضوع، إذ أنه وضع الجذور الأساسية للعلم. ومقولته الشهيرة ((إن وعي الناس لايحدد واقعهم الاجتماعي بل إن واقعهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم الاجتماعي[2]).) وبذلك فقد رد علم الاجتماع الماركسي كلا من الفكر والمعرفة إلى الأساس المادي للمجتمع، أي إنه ينظر إلى البناء الأسفل على أنه مصدر كل أشكال المعرفة من أيديولوجيات وفلسفات علوم وأديان.

واستناداً إلى هذا الفهم الماركسي ترتد الذات العارفة إلى طبيعة الموضوعات من حولها، ويرد الفكر إلى الواقع الاجتماعي، مما يترتب عليه تفسير الأفكار والأيديولوجيات من خلال طبيعة الموقف الاجتماعي[3].

أما أميل دوركايم، فيرى أن المجتمع موجود في إطار أكبر هـ و الطبيعة والكون، ولايمكن فصل ما يدور في المجتمع عما يجرى في الطبيعة والكون، كذلك المعرفة فهي موجودة في المجتمع ولا تنفصل عنه لا في عناصرها ولا في مقاييسها (ومنها الموضوعية)، فالمعرفة ليست شيئاً بحد ذاته بل هي معرفة اجتماعية وبشرية،

(1) جورفيتش، جورج، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص23–24.

(2) هار الامبوس، ميشيل، اتجاهات جديدة في علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن وآخرون، ط1، بيت الحكمة، بغداد، 2001، ص575.

(3) إسماعيل، قباري محمد، قضايا الاجتماع الماركسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية 1977، ص83– 134.

فالموضوعية في المعرفة هي أيضا اجتماعية وبشرية[1] وهكذا فإن علم اجتماع المعرفة عند دوركايم ينصب وينقب عن الأصول الاجتماعية للتمثيلات الجمعية.

إن ميدان علم اجتماع المعرفة، في نظر (مانهايم)، هو الفكر البشري ككل، أي مجموعة المنظومات الفكرية التي عرفها الإنسان. هذه المنظومات الفكرية تبدلّت وتغيرت عبر التاريخ، لذا فمعرفة كيفية هذه التبدّلات وماهيتها مهمة حيث ترشدنا إلى ماضينا ومستقبلنا معاً[2].

يرى (مانهايم)، أن المحددات الاجتماعية قد شوهت المصالح الطبقية التي تكلم عنها (ماركس). لقد أكد (مانهايم) أن المصالح الاجتماعية يمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين هما:

أولاً: تأكيده أن علم اجتماع المعرفة يجب أن لايهتم بالتشويهات التي ترجع إلى الجهود المقصورة للخداع والغش، علماً بأن البنى العقلية للأفراد إنما تعتمد على أوضاعهم التاريخية والاجتماعية المختلفة، وثانياً، إن (مانهايم) يعتقد بأن أفكاره لاتعتمد على طبقتنا الاجتماعية فقط بل تعتمد أيضا على عوامل وقوى كالجماعات الأخرى التي تنتمي إليها والتي يعتمد الانتماء إليها على العمر والمنزلة والدين والحرفة والانحدار الإثني[3].

فعلم اجتماع المعرفة عند(مانهايم) منهج تحليلي مقارن للأفكار والتصورات الأيديولوجية، ونظرية تحللّ العلاقة بين المعرفة والوجود، أو بين الفكر والواقع ألاجتماعي التاريخي باكتشاف الصور التي تتشكل بها العلاقة بين الفكر والواقع عبر مراحل تطور الفكر الإنساني[4].

---

(4) معتوق، فردريك، تطور علم اجتماع المعرفة من خلال تسعة مؤلفات أساسية، ط 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص61.

(1) المصدر نفسه، ص138.

(2) هار الامبوس، اتجاهات جديدة، مصدر سابق، ص586.

(3) مانهايم، كارل، الايديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة عبد الجليل الطاهر، مكتبة بغداد، 1968، ص1–19.

والملاحظ أن (مانهايم) ميز بين المعنى الخاص والمعنى الكلى، والمعنى العام للايديولوجيا في عمله الموسوم (الايديولوجيا واليوتوبيا)، حيث توصل علم اجتماع المعرفة إلى أن فكر الذات هو فكر مؤدلج للسياق الاجتماعي، يبتعد بصورة واضحة عن المعنى السياسي، وبالتالي يجعله مشكلة خاصة بعلم الاجتماع التاريخي والأبستمولوجيا. وبالتالي، لايفرق (مانهايم) بين الفكر اليوتوبي وبين الايديولوجي، فكلاهما يقدمان صورة مشوهة للواقع الاجتماعي، زد على ذلك أن الفكر اليوتوبي يتمتع بدينامية جعلته يقدم هذا الواقع بطريقة مشخصة[1].

وأخيراً، يرى (مانهايم)، أن علم اجتماع المعرفة لم يبرز إلا عندما تشكلت (كوكبة نجوم) Constellation في سماء المعرفة الإنسانية أدت إلى تبلور علم اجتماع المعرفة، عناصر هذه الكوكبة أربعة:[2]

1. تخطي النسبية المثالية .
2. بروز النزعة العقلانية مع فلسفة الأنوار .
3. تبديل أساسي في نظام القيم السائد.
4. اتسام النسبية بالطابع الشمولي.

إن النتاج النهائي لعلم اجتماع المعرفة عند (مانهايم) هو التوجيه العلمي للحياة السياسية ، والجذور الاجتماعية للمعرفة. وهناك رافد آخر تأثر به علم اجتماع المعرفة، وهو الاتجاه التاريخي المتمثل في أعمال وليام ديلتي Williams Dilthey، حيث يؤكد على تاريخية الفكر الإنساني، أي ارتباط الفكر بزمن تاريخي محدد، وهو مايعني أنه من الصعوبة بمكان فهم أية مقولة نظرية إلا في ضوء سياقها التاريخي، الذي يلعب دوراً فاصلاً في تحديد المكانة الاجتماعية للفكر[3].

---

(1) برجر، بيتروتوماس لوكمان، البنية الاجتماعية للواقع . دراسة في علم اجتماع المعرفة، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2000 ص19– 20.

(2) للمزيد حول هذه الكوكبة، ينظر: معتوق، فردريك، مصدر سابق، ص139.

(3) Malcolm Williams. "Social and Social Science an Introduction", First Published, Routledge, London, 2000, p.51.

وقد تطورت النظرية السوسيولوجية للمعرفة عند (ماكس شيلر) (1847–1928) Max Scheler و (نيكولاي هارتمان) (1882–1950) Nikolai Hartmann حيث نظر كل منهما إلى المعرفة من خلال الوظيفة الاجتماعية وعلاقاتها بالأصول الثقافية والاجتماعية وردها إلى عناصرها الكامنة في بنية المجتمع[1].

تعالج سوسيولوجية المعرفة مسألة موضوعية المعرفة، على اعتبار أن العوامل الاجتماعية لها أثر في اكتساب العلوم ونشأتها. وينطلق هذا العلم من الطبيعة السوسيولوجية للمعرفة الإنسانية جميعها، فالمبدأ الأساس لعلم اجتماع المعرفة عند (شيلر) هو الأشكال Forms وليس محتويات الأفعال أو مضمونها العقلية التي تكتسب المعرفة من خلالها، وهي دائماً مشروطة اجتماعيا أي مشروطة ببنية المجتمع. فالظروف الاجتماعية هي التي تحدد جزئياً ما يكون المعرفة للجماعة، والقوانين التي تنتشر بها المعرفة وتوزع نفسها داخل تلك الجماعة، كما تتبع اختيار ماتعتبره القيم والمصالح على أساس روحها أو مزاجها العام Ethos[2].

ثالثاً: سوسيولوجيا العلم (علم اجتماع العلم):

الاهتمامات الأساسية لعلم اجتماع العلم تتمركز حول منظومة الأفكار التي تنطوي عليها العقائد الشرعية والايديولوجيات السياسية والمعتقدات الدينية وغيرها. وليس من الصعوبة أن نقر بأن الأفكار الشرعية والمعتقدات الدينية والمعرفة اليومية تصاغ وتتأثر بالقوى الاجتماعية. والأصعب من هذا كله أن نقول بأن العلوم الطبيعية – لاسيّما الفيزياء – تتأثر بالقوى الاجتماعية، ذلك أن العلوم الطبيعية تتطلب المعرفة المادية التي لا تتأثر – وبأي شكل من الأشكال–

(1) محمود، وفاء عبد الحليم، القيم في فلسفة ماكس شيلر، ط 1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2005، ص158.

(2) المصدر نفسه، ص160.

بالاهتمامات والعوامل الاجتماعية والبشرية. ويشعر كل من (دوركايم ومانهايم) بل وحتى (ماركس) بأن العلوم الطبيعية تنتج المعرفة غير المتأثرة بالقوى والعوامل الاجتماعية. وعلى كل حال فإن علم اجتماع المعرفة العلمية قد أصبح حقلاً دراسياً مزدهراً من حقول البحث العلمي، الذي سيعترف بدور العوامل الاجتماعية، ولكن سينكر أي أثر لها في استقلالية العلم وتطوره.

يعدُّ عالم الاجتماع (روبرت ميرتون) أشهر عالم اجتماع، لاسيما فيما يتعلق بعلم اجتماع العلم كموضوع متخصص من مواضيع علم الاجتماع. لقد ركز اهتمامه على العلم بوصفه مؤسسة اجتماعية لها نظمها وقيمها وروحيتها. واعتبر أن موضوع علم اجتماع المعرفة العلمية، دراسة القواعد والعادات الاجتماعية والمهنية والقيم والأفكار التي تؤثر في المجتمع العلمي[1].

أما هدف علم اجتماع العلم عنده فهو تشجيع تطور العلوم وحمايتها من العراقيل التي يضعها المجتمع وايديولوجياته والمصالح الضيقة لأعضائه[2].

بيد أن (ميرتون) يرى أن عمل العلماء يخضع لنوعين من القواعد هما: القواعد الأخلاقية، حيث تتعلق بالتصرفات الاجتماعية والمهنية، والقواعد الفنية، فتتعلق بالجوانب الإدراكية، أي القواعد المنطقية والمنهجية. ويهتم علم اجتماع المعرفة العلمية بالقواعد الأخلاقية، أي بمجموعة القيم والقواعد ذات الصبغة العاطفية التي يجب على رجل العلم أن يتكيف معها[3].

وقد حدد (ميرتون) هذه القواعد أو مايقصد به (روح العلم) على وفق أربع منظومات من الضرورات المؤسسية[4]

1. **الكونية (العمومية)** : ويقصد بها تقييم المعرفة الجديدة على وفق المعايير الموضوعية واللاشخصية، حيث إن اختيار الكوادر الوظيفية يتم بموجب

(1) فينك، دومينك، علم اجتماع العلوم، ترجمة ماجدة أباضة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000، ص29.
(2) المصدر نفسه، ص30.
(3) المصدر نفسه، ص31– 33.
(4) هارالامبوس، مصدر سابق، ص607– 608.

مصادر الموهبة الذاتية فقط، كما أن المعرفة لايمكن الطعن بها بسبب العوامل العقائدية (الدين) والعرقية والجنسية، وأن العلماء لاعلاقة لهم بالحقائق التي يتوصلون إليها.

2. **الاشتراك :** ويقصد به أن الاكتشافات العلمية ذات منفعة مشتركة تهدف إلى المنفعة العامة للمجتمع. ولذلك فإن العلماء يبتعدون عن السرية والأنانية، ويشاطرون العلماء الآخرين نتائج بحوثهم.
3. **التقييم العلمي (الحياد الأدبي) :** ويقصد به خضوع البحوث لتقييم منظم، من خلال مقاييس منطقية وتجريبية، منفصلة عن كل معتقد شخصي، فالأخلاق العلمية ترفض قبول نتائج لاتخضع للتجربة والمقاييس المنطقية.
4. **الإبداع :** هو الأساس الوحيد الذي يمنع الاعتراف، إذ يقدم العالم الاكتشافات التي تطلبها منه المؤسسة العلمية، وفي المقابل فإن المؤسسة تمنحه الاعتراف والتقدير.

وفي ضوء ماسبق، فإن العلماء ينبغي أن يكونوا مما يدين، إذ يرون أن العلم هو مؤسسة اجتماعية لها منظومتها المعيارية التي تفرض على العلماء سلطة أخلاقية، بحيث تتحول هذه السلطة الأخلاقية إلى أعراف وتقاليد. ولذلك يمنح العلماء الجوائز والحوافز كلما كان التزامهم عالياً بتلك القواعد الأخلاقية والفنية.

وعلى كل حال فإن قيم العلم ومقاييسه ملزمة للعلماء لا بسبب كونها وظيفة ولكن بسبب كونها خاضعة للقواعد الفنية والأخلاقية. وبذلك تعد المؤسسة العلمية أنموذجاً للديمقراطية بالنسبة لـ(ميرتون) إذ يعتقد أن العلم يزدهر ويتطور بصورة عامة في المجتمعات الديمقراطية والليبرالية أكثر من المجتمعات السلطوية (المركزية والشمولية).

وضمن هذا الإطار فإن عمل (متروف) المنشور عام 1974 يشكك في موضوع تبني العلماء للمعايي ر (الميرتونية) ذلك أن دراسة (متروف) تقول إن العلماء يكونون ملتصقين بصورة انفعالية بنظرياتهم، وإن اكتشافاتهم العلمية

(البحثية) يطغى عليها طابع السرية والكتمان وإن أحكامهم تعتمد على شخصياتهم وسمعتهم أكثر مما تعتمد على التقويم الموضوعي[1].

يتضح مما سبق أن الموضوعية العلمية يمكن أن تتعرض إلى الشبهة أحياناً، ولكن ليس إلى انعدام الأمانة العلمية، للا الخطأ أو الانحراف أو خداع الذات أو سوء السلوك في العلم، وإنما عن طريق صراع المصالح في العلم. ويحدث صراع المصالح عندما تتصارع المصالح الشخصية أو المالية للشخص مع التزاماته تجاه المهنة أو المؤسسة. وهناك نوع شديد من صراع المصالح في العلم يحدث عندما ينتظر الباحثون منفعة مالية من جراء نتائج البحث[2]. هذه المنافع يمكن أن تتمثل في زيادة المرتب، وحقوق النشر أو استغلال براءة الاختراع، وتمويل بحث إضافي، وحصة في الأرباح وهكذا فإن هذه المنافع المالية كلها يمكن أن تخلق صراعاً للمصالح حقيقياً أو ظاهرياً. وهذا ماحدا بـ(وارن هاكستروم) إلى الاعتقاد بأن العلاقة بين العلماء والمؤسسات العلمية تقوم على أساس تبادل المنافع[3].

وفضلاً عن الاهتمام المتزايد إزاء الصلة بين المؤسسات السياسية والاقتصادية والمؤسسات العلمية فإن تصنيع العلم قد ولد المصلحة الاجتماعية الخاصة بالصراع الحضاري بين العلم والصناعة. فعدد من علماء الاجتماع الامريكيين السائرين على الخط (الميرتوني) قد أشاروا إلى أنهم ضحية لصراع بين حضارتين متعاكستين[4]. وعلى وفق هذا الرأي نلاحظ بأن العالم الصناعي الذي هو كالعالم الصرف أو البحث قد ترى طيلة مدة تدريبه على معايير العلم الصرف.

لقد ظهرت في السبعينيات أساليب اجتماعية جديدة لدراسة المعرفة العلمية، فعلم الاجتماع الوظيفي فضل استخدام الأسلوب الكلي في دراسة الظروف التي تنتج المعرفة العلمية. فركز على العلم بوصفه مؤسسة اجتماعية وفحص علاقاته بالمؤسسات الأخرى لاسيّما المؤسسات الاجتماعية والعسكرية

(1) هارالامبوس، المصدر السابق، ص611.
(1) ديفيد.ب. رزينك، مصدر سابق، ص 132.
(2) فينك، دومينك، مصدر سابق، ص77–79.
(3) هارالامبوس، مصدر سابق، ص618.

والاقتصادية. وقد وصل الأمر إلى تفسير العلم وتطوره عن طريق عوامل دينية وجنسية Gender. إذ تبين من دراسة (ماركريت فرتهايم) M.Vertheim، بطلان الدعوى التي تفترض أن العلم مشروع تدفعه المناهج العقلية الخالصة[1].

ودعوتها في ذلك أن العلم حتى اليوم يتأثر بعوامل دينية وجنسية. فالعلم، عند(ماركريت)، في أي عصر من العصور يعكس البنى المتعلقة بالمعتقدات الدينية لذلك العصر، بل إن تلك المعتقدات كثيرا ما شكلت وجهة نظر العلم بصورة حاسمة[2].

وتؤكد الباحثة (ماركريت) أنه على مر تاريخ الفيزياء، هناك استبعاد للنساء من مجال الفيزياء، حتى يومنا هذا، يعود ذلك إلى أسباب دينية. وذلك لارتباط الفيزياء قديماً بالدين وممارستها من قبل الكهنة، والنساء لايستطعن أن يصبحن كاهنات. وتؤكد الباحثة، أنه لولا استبعاد النساء من مجال الفيزياء لكان للفيزياء المعاصرة وجهة مختلفة تماماً، لأن الفيزياء حرمت نفسها من النساء الموهوبات لقرون طويلة. كما أن الفيزياء، لاتزال حتى اليوم، تعاني قلة المشاركة النسائية، مما يؤكد أن النظرة الدينية للفيزياء لاتزال موجودة بين الفيزيائيين المعاصرين. فقد بينت الإحصائيات أن النساء تقلدن (5 %) فقط من المناصب الأكاديمية للفيزياء، وأنهن لايشكلن إلا (3%) من أساتذة الفيزياء الجامعيين، في حين شكلت النساء (37%) من القوة العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية[3].

وبحسب قول فرتهايم، فإن العلم بحاجة إلى طرق تفكير جديدة بموجب المنظورات الثقافية والاجتماعية المتعددة.

---

(1) فرتهايم، ماركريت، الإيمان والعقل والجنوسة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مجلة الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (116) الكويت، 2003، ص186.

(2) المصدر نفسه، ص187.

(3) المصدر نفسه، ص194.

وإذا كانت المعرفة العلمية فيما سبق، انعكاس للعوامل الاجتماعية المحيطة ومتأثرة بها إلى درجة تفقد استقلاليتها وموضوعيتها، فإن المعرفة العلمية لاتختلف في الجوهر والأساس عن المعارف السياسية والفلسفية والدينية.

أما ادعاء العلم بأنه يقدم لنا معرفة موضوعية، فما هو الدليل على ذلك؟ حيث وجود التأثيرات الاجتماعية في المؤسسة أو العملية العلمية؟

بهذا الصدد، يجيب (لويس وولبرت) أنه على الرغم من صعوبة الادعاء بأن العلم يمتلك حقائق مطلقة، وعلى الرغم من الأثر الواضح للعوامل الاجتماعية والثقافية في عمل العلماء العلمي، فإنه لايمكن القول بأن العلم يتصف بالنسبية. وأن الادعاءات التي تحاول إعطاء مضمون العلم بعداً اجتماعياً فيها كثير من المبالغة، لأن العلم في النهاية له منطقه الداخلي الذي يعطيه الموضوعية. ولذلك نجده يرد على النسبيين بقوله: لو سار التاريخ في مسار يختلف عن المسار الذي سار عليه، فهل سيسير العلم في مسار أخر في هذه الحالة ؟ هل كانت علوم الفيزياء ستقدم لنا ما يختلف عما نعرفه الآن عن الطاقة وغيرها ؟ هل كانت علوم البيولوجيا ستتحدث عن أشياء غير الخلايا والدنا؟))[1].

طبعاً جواب النسبين سيكون نعم، أما (وولبرت) فإجابته: لا. لأن العلم في النهاية يمتلك بنية منطقيه وعقلية تجعله يصمد أمام انتقادات النسبيين، فمضمون العلم في النهاية لايتأثر بكل تلك العوامل الاجتماعية، لأن بنية العلم المنطقية والعقلية تجعله فوق كل أشكال النسبية الاجتماعية[2].

إن مايجعل المعرفة موضوعية علاقتها بالوقائع المستقلة عن مصالح البشرية، والنظريات والانحيازات. ومن المعروف بيئة البحث المعاصر هي

---

(1) وولبرت، لويس، طبيعة العلم غير الطبيعية، ترجمة سميرحنا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001، ص65.

(2) صالح، رشيد الحاج، المعرفة العلمية بين العوامل الاجتماعية والبنية المنطقية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد(36)، العدد (1) يوليو/ سبتمبر، 2007، الكويت، ص58.

مؤسسات اجتماعية ترعى البحث العلمي وتدعمه وتنميه، سواء في الدول الغربية والولايات المتحدة وغيرها.

يمارس العلم في بيئات مختلفة كثيراً. وهذه المؤسسات الاجتماعية الداعمة للبحث لها أهداف وقيم ومعايير خاصة بها ربما تطيع أولا تطيع القيم والمعايير العلمية، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى الكثير من المعضلات والانحرافات الأخلاقية.

وبذلك من الصعوبة ان يتخلف العلم من المؤشرات الاجتماعية، وكما يعتقد (توماس كون) أن العوامل الاجتماعية لاتؤثر فقط على الظروف التي فيها تتيح المعرفة العلمية، بل تؤثر أيضا مع الأحكام النظرية التي يتمسك بها العلماء.

رابعاً: المعرفة الاجتماعية ومحاكاة العلم:

شهد الفكر الإنساني نقلات نوعية في طبيعة. المعرفة فبعد سيادة الفكر التأملي الفلسفي، تحول بعد فترة مخاض إلى سيادة الفكر الوضعي، الذي أثر بدوره في طبيعة المعرفة الإنسانية وشكلها وآليات الحصول عليها.

ومع ولادة علم الاجتماع كعلم يهتم بدراسة المجتمع في هذا المنا خ، فقد راح يحاكي العلوم الطبيعية. إذ أستخدم مؤسس الوضعية (أوكست كونت) المنهج الوضعي في دراسة الظواهر الاجتماعية. وكان يقصد من الوضعية كل ما هو قائم على الواقع والخبرة، ورفض كل الفلسفات اللاهوتية والميتافيزيقية. وكان (كونت) يريد من هذه الفلسفة تحقيق غرضين أولهما، أن يجعل من العلوم العقلية علوماً وضعية، وثانيهما، أن ينسق شتى العلوم بما لها من القوانين والمناهج [1]. وبهذا الصدد فإن نسق المعرفة الوضعية عند(كونت) يتكون من الملاحظة والتجربة والمقارنة والمنهج التاريخي. أي خضوع الظواهر الاجتماعية كغيرها من الظواهر لقوانين طبيعية ثابتة.

(1) تيماشيف، نيقولا، نظرية علم الاجتماع – طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون، ط8، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص49–53.

بيد أن الوضعية الجديدة أُضافت كثيراً من الأسس التي تحدد الأساس المنطقي لبناء العلم. ولقد كانت الوضعية المنطقية بدورها جزءاً من حركة أوسع نطاقاً تدعو إلى وحدة العلم. وكان مفكرو الحركة ينتمون إلى علوم متعددة، منها علم الاجتماع، حيث تمثل آراء (جورج لندبرج) (1895– 1966)، انعكاسا منهجياً للآراء الوضعية في علم الاجتماع. ويذهب (لندبرج) إلى أن كل العلوم اجتماعية كانت أم غير اجتماعية – هي بالضرورة أداة أو وسيلة تكيفية أي إن كل الظواهر التي تخضع للدراسة العلمية تتشكل نتيجة لتحولات الطاقة Energy Transformations (الحركة) Motion التي تحدث في الكون الطبيعي.

ولقد ترتب على اهتمام الاتجاه الوضعي الحديث بلغه العلم بمجموعة من النتائج المنطقية:[1]

الأول: يرتبط بفكرة الاتجاه الوضعي عن وحدة العلم. وإنكار أي من الفروق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. وأساس الوحدة في العلم هو (وحدة المنهج ووحدة اللغة) وكلاهما يستخدم المنهج العلمي في أي من المجالات. ولقد ترتب على فكرة وحدة لغة العلم ظهور اتجاهين يواكبان الاتجاه الوضعي الجديد، هما: الاتجاه الفيزيقي Physicalism الذي يستلزم أن يتحدث العلم بما في ذلك علم الاجتماع، لغة مشتركة هي لغة الفيزياء، والآخر، الاتجاه الكمي الرياضي، فمنطق الاتجاه الوضعي ليس منطقاً رمزياً فحسب، بل هو منطق رياضي كذلك.

الثاني: يتمثل في ارتباط الاتجاه الإجرائي بالاتجاه الوضعي الحديث، ذلك لأن الاتجاه الإجرائي وضعي في روحه، وإن لم يكن كذلك في منشئه. إذ جاء هذا الاتجاه ليضع القواعد ويحدد الشروط التي تسمح بإدخال أي من المفاهيم في لغة العلم. وتتمثل هذه القواعد في عمليات القياس، ففي ضوء القياس ينبغي تحديد المفهومات النظرية.

يتضح مما سبق، أن الوضعية الجديدة تنظر في الأشياء كما هي، وتهتم بها وصفاً، وتدركها إدراكا حسياً جزئياً، معزولاً عن سياقه التاريخي، وعن إطاره

(1) عارف، محمد، المنهج في علم الاجتماع في ضوء نظرية التكامل المنهجي، ط 2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1975، ص347–348.

البناء، والوقوف على الأوضاع القائمة، وكأنها نهاية النهاية، بل ونهاية التاريخ الاجتماعي للإنسان ومجتمعه. كما أن أصحاب هذا الاتجاه ينادون بضرورة ارتباط كل العلوم بالعلم الطبيعي، تلك التي تتأسس على مجموعة من المرتكزات الأساسية وهي استخدام الصيغ الرياضية، والتجريب، والمفاهيم، والبناء الأرسطي في التفسير. أي حاول مفكرو الوضعية ربط الوضعية بالعلم، بهدف تطهير العلم من الميتافيزيقيا التي من وجهة نظرهم تلعب دوراً محورياً في إفساد العلم وتبديد الموضوعية.

بيد أن الوضعية قد أخذت موقفاً رافضاً من جميع المعارف التي لاتتصف بالصفة العلمية، فضلاً عن معارضتها للمعارف التقليدية التي أخذت صيغة ثنائية مثل الذات والموضوع[1].

أما الوضعية المنطقية (Logical positivism) فظهرت في بداية القرن العشرين في شكل حلقة أو دائرة (فينا)، وتمثل الهدف الرئيسي لدائرة (فينا) في توحيد العلوم الجزئية، وتوحيد معارف الإنسان. أما استخدام التحليل المنطقي عندهم، فقد تم بصورتين:[2]

1. صورة سلبية حيث إن من أدق أهداف دائرة(فينا) استبعاد القضايا الميتافيزيقية من العلوم الطبيعية والرياضيات والمعرفة الإنسانية بوجه العام.
2. صورة ايجابية لتوضيح تصورات ومناهج العلوم، وبيان كيف أن المعرفة الإنسانية ككل صدرت عن معطيات الخبرة.

فقد ذهب (رودلف كارناب) (1891– 1970) R.Carnap أحد أنصار الوضعية المنطقية إلى أن كل جملة في العلم لايمكن ردها إلى جملة تجريبية تعد

(1) عبد العالي، عبدالسلام بن وسالم يفوت، درس الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة، ط 2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص45–48.

(2) محمد علي، ماهر عبد القادر، اتجاهات الفكر الفلسفي العلمي منذ بداية القرن العشرين، فصل في كتاب (الفلسفة العربية المعاصرة. مواقف ودراسات) مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2000، ص149.

جملة خالية من المعنى. بل ذهب إلى حد أن يربط جميع مصطلحات العلوم (طبيعية وإنسانية) بمصطلحات علم الفيزياء. لاعتقاده أن الفيزياء هي النموذج الأمثل لكل العلوم. كما رأى أن كل قضية علمية يمكن التعبير عنها في لغة علم الطبيعية، وبالتالي فإنه يمكن اعتبار هذه اللغة عينها لغة عامة للعلم، وتكوين هذه اللغة أحد أهداف التجريبية المنطقية[1].

إن أصحاب الوضعية المنطقية يشددون على ضرورة توحيد العلوم من خلال مبدأ الإرجاعية، فإنهم أيضاّ يسلمون بعدم وجود التناقض بين العلوم، وإذا كان ذلك حادثاً في العلوم الطبيعية، فما هو موقع العلوم الاجتماعية في هذا الشأن، خاصة إذا ماعرفنا أنها تعج بفرق متناحرة: حيث يوجد بين العلوم الاجتماعية ماهو تحليلي وتركيبي، إذ إن القضايا التجريبية لاتتحد في مضامينها، فضلاً عن أن المضامين تتجاوز التجريبية. وبذلك يمكن القول بأن ما هو مناسب لعلم معين، قد لا يكون كذلك في علوم أخرى، ذلك الأمر الذي يمكن أن يتسبب في اختزال البناء المفهومي والمعرفي لعلم بذاته[2].

والحقيقة أنه مهما كان اتجاهنا نحو الوضعية المنطقية، فلا شك في أن هذه الحركة كان لها إسهامات جادة في التحليل اللغوي والمنطقي بصفة خاصة، ومناهج البحث العلمي بصفة عامة. ولعل في قول فيلسوف العلم المعاصر (كيبرج) في كتابه (العلم والعقل)، يقول، غالباً أن الوضعية أو التجريبية المنطقية قد وافتها المنية. وهذا القول يغلفه الكثير من الشك، لأنه ليس واضحاً تماماّ من هو الذي توفي... إذ لاتزال منهجية الصياغة والتحليل حية حتى ضمن أولئك الذين يكتبون بين الحين والأخر النعي تلو النعي في وفاتها[3].

---

(1) بلانشيه، روبير، نظرية المعرفـة العلمية (الأبستمولوجيا) ترجمة: حسن عبدالحميد، جامعة الكويت، 1989، ص99-100.

(2) صيام، شحاته، علم اجتماع المعرفة وصراع التأويلات من العقلانية إلى جدل الذات، ط 1، دار ميريت، 2005، ص56.

(3) Kyburg, Hery E., Science and Reason, Oxford University Press, New York, 1990, p.6.

أما الاتجاه العقلي Rationalism، فينظر إلى العقل على أنه ملكة حدسيه خاصة توجد في الإنسان وتميزه عن غيره من الحيوانات، وتمكنه من الوصول إلى المبادئ والحقائق الكلية عن العالم. ويعني الاتجاه العقلي في الفلسفة فكرة تنظر إلى العالم على أنه كل منسجم يمكن دراسته بواسطة العقل وفي العلم، يعني صوغ النظريات العامة ووضع القوانين المنطقية والرياضية. ونعني بالاتجاه العقلي في علم الاجتماع، استخدام العقل، من حيث ماله من صلة بالاستدلال العقلي والاستنباط المنطقي في علم الاجتماع، وقدرته على صوغ المفهومات والتصورات والوصول إلى العلاقات المنطقية، بطريقة تمكن من استخلاص نتيجة صحيحة من مقدمة معينة، أو الوصول إلى حكم صادق من الناحية الموضوعية عن الظواهر الاجتماعية[1]. ويهدف هذا الاتجاه إلى تحقيق التنظيم العقلي للواقع الاجتماعي، والتفسير العقلي للظواهر الاجتماعية. فالمصدر الأول للمعرفة في ضوء الاتجاه العقلي هو العقل الذي ييسر للإنسان بواسطة الحدس العقلي سبيل للكشف عن الأفكار الواضحة المميزة. فالعلم ليس معرفة مجزأة متفرقة، بل هو معرفة منظمة متكاملة.

بيد أن (محمد عارف) في مؤلفه (المنهج في علم الاجتماع) يتبنى مدخلاً تكاملياً يعالج من خلاله مشكلات العلم قيد الدراسة، والذي حدا به إلى تبنى هذا المدخل، هو ما وجده من أوجه القصور والنقص في المدخل التجريبي أو المدخل العقلي كل على حدة، يقول في هذا المعنى (إذا كان الاتجاه التجريبي قد ركز جهده في إبراز أهمية الإدراك الحسي، كمصدر لهذه المعرفة، بينما سعى الاتجاه العقلي نحو إبراز ما للتفكير العقلي من دلالة في عملية الإدراك المعرفي لهذه الظواهر، فان وجهة نظرنا لا تقر أياً من هذين الاتجاهين)[2].

ولقد كان من الطبيعي ان يحاول (عارف) الجمع بين المنهجين في إطار نظريته في التكامل المنهجي، فيتعامل مع المادة العلمية من خلال منظور

(1) عارف، محمد، المنهج في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص264.
(2) المصدر نفسه، ص299.

(استقرائي – استنباطي) يرى أن الأساس في البحث هو قيام مشكلة نظرية أو تجريبية تتحدى فكر الباحث، وتحفز فيه دوافع الفضول، وتثير فيه الحيرة، فبداية البحث الاجتماعي بمشكلة نظرية تتطلب التفنيد العقلي والتجريبي معاً، ونتائج التفنيد تتطلب التفسير، والتفسير يستلزم اللجوء إلى الافتراضات أو النماذج، واستخدام الفروض المستمدة من هذه النماذج، وهذه الفروض هي في ذاتها قضايا تنبؤية كما هي قضايا تفسيريه، ولهذا تتطلب الفروض الاختبار بواسطة مزيد من الحقائق[1].

يتضح مما سبق، أن مضمون المعرفة العلمية هو ذو طبيعة اجتماعية، وأن النظريات والاكتشافات العلمية تخضع للعوامل والمصالح والشروط والمراكز الاجتماعية، لدرجة يمكن القول معها: إن المعرفة العلمية معرفة اجتماعية أكثر من كونها معرفة تجريبية ومنطقية. وإن هناك جدالاً دائراً بين أنصار المنهج التجريبي المنطقي وأنصار المنهج الاجتماعي حول طبيعة مضمون المعرفة العلمية.

فالمعرفة العلمية، اليوم، يتنازعها منهجان في التفسير، أولهما، منهج تجريبي منطقي، كما أسلفنا من قبل، وثانيهما، منهج اجتماعي يؤكد أهمية العوامل الاجتماعية ودورها الأساس في المعرفة العلمية، إذ ينطلق هذا المنهج من أن العوامل الاجتماعية مثل (التنافس،التمويل، الغيرة، التراتبية الاجتماعية للعلماء، المصالح الاجتماعية، الانفتاحية، الخداع ...الخ) لها دور كبير في عمليه تكوين الحقيقة وإثبات المكتشفات في المعرفة العلمية.

وينقسم هذا المنهج إلى اتجاهين:[2]

الأول، يعتقد ان العوامل الاجتماعية تؤثر فقط على (الممارسات العلمية) وفحوى هذا الاتجاه أن العوامل الاجتماعية تؤثر في شكل المؤسسات العلمية والتنظيم الاجتماعي للمعامل وتقسيم العمل، وسلوكيات العلماء داخل المعامل، وبالتالي تلعب دوراً مؤثراً في شكل المعرفة العلمية فقط وليس في مضمونها، لأن ذلك المضمون يخضع فقط للمقاييس التجريبية والمنطقية. أما الاتجاه الثاني فيعتقد أن

(1) المصدر نفسه، ص301.

(2) صالح، رشيد الحاج، المعرفة العلمية، مصدر سابق، ص40–41.

العوامل الاجتماعية تؤثر في مضمون المعرفة العلمية، وأن تلك العوامل تلعب في كثير من الأحيان دوراً أكبر من دور التجارب. فهذا الاتجاه يميل إلى النظر إلى المعرفة العلمية على أنها معرفة مستقلة عن المجتمع وصراعات المصالح، وبالتالي لاتتميز عن باقي المعارف الإنسانية في شيء.

خامساً: واقع المعرفة الاجتماعية في اتجاهات ما بعد الوضعية المنطقية:

في الربع الثاني من القرن العشرين ساد تيار فلسفي رئيس في فلسفة العلم أطلق عليه أسم (التجريبية المنطقية) أو حركة (الوضعية المنطقية)، كما سبق أن تناولنا. وتتبنى هذه الحركة المنطق الرياضي في صياغة أطروحاتها، والتعامل مع مشكلاتها، فأعلنت أن فلسفة العلم (بل والفلسفة بصفة عامة) ليست سوى منطلق للعلم، واعتبرت أن المهمة الوحيدة التي ينبغي أن تضطلع بها الفلسفة هي التحليل المنطقي[1]. وأن وظيفة التحليل المنطقي هي تحليل المعرفة كلها، وتقريرات العلم والحياة اليومية كلها، لكي توضح معنى كل تقرير من هذه التقريرات والروابط التي تنشأ بينها[2].

هذا الاتجاه من جانب الوضعية المنطقية (لوضعنة) الفكر الفلسفي، أدى إلى نتائج خطيرة بالنسبة إلى العلوم والفلسفة معاً، مما أدى إلى ظهور حركات فلسفيه مضادة، يمكن أن نسميه(اتجاهات ما بعد الوضعية المنطقية) وقادها فيلسوف العلم الشهير (كارل ريموند بوبر)، وشاركها (توماس كون) و (أمرى لاكاتوس)، و(باول فيرابند). ورغم الخلافات الشديدة بينهم، شكلوا معاً معالم فلسفة العلم في الثلث الأخير من القرن العشرين.

يرى (كارل بوبر) (K.Popper (1902–1995 في كتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) 1945، أن المعرفة الاجتماعية، لاتتبلور من الفراغ بل من خلال البيئة والظروف الاجتماعية، وأن مؤثراتها لاتخضع للملاحظة لأنها انغرست وعاشت في ذوات الأفراد، ومن ثم خرجت على شكل سلوك ومنطق [3]. فالملاحظ أن هناك عوامل خارجية أثرت على سلوك الافراد وذواتهم وهي المؤثرات – البيئة الاجتماعية. يقول (بوبر) في (منطق الكشف العلمي): (يضع العالم سواء أكا ن نظرياً أم تجريبياً قضايا أو أنساقاً من القضايا، تم يختبرها تدريجياً في ميدان العلوم

(1) Carnap R. Philosophy and Logical Syntax, in Reading in the Philosophy of Science, New York, 1953, p.34.
(2) Ibid, p.425.
(3) عمر، معن خليل، علم اجتماع المعرفة، مطبعة جامعة الموصل، 1991، ص235.

الامبريقية، وبصفة خاصة يكوّن فروضاً أو أنساقاً من نظريات ويجرى عليها اختباراً في مواجهة الخبرة عن طريق الملاحظة والتجربة[1]. وعلى هذا النحو يعتقد (بوبر) أن مهمة منطق الكشف العلمي تتمثل في تقديم تحليل منطقي للأجراء الذي يقوم به العالم في ميدان العلوم الامبريقية، وتتميز هذه العلوم حسب قوله باستخدام الطرق الاستقرائية، بمعنى أن نظرياتها تؤسس عن طريق الاستدلال من القضايا الشخصية (تلك التي تبدو من تقارير الملاحظات – والتجارب – إلى القضايا الكلية مثل (النظريات والفروض). من هذا نشأت مشكلة الاستقراء.

ويميز (بوبر) بين أربعة أبعاد في فحص أية نظرية علمية [2]، الأول، من ناحيتها المنطقية، وذلك بمقارنه منطقية للنتائج فيما بينها للتثبت من التكوين الداخلي. والثاني، البحث في الشكل المنطقي للنظرية العلمية فيما إذا كانت ذات طبيعة تجريبية أو تحصيلية Tautological. والثالث، مقارنتها بالنظريات الأخرى لمعرفة فيما إذا كانت تقدم حقاً نتائج تزيد من المعرفة العلمية، والرابع، اختبار النظرية عن طريق التطبيقات التجريبية للنتائج المشتقة منها.

طرح (بوبر) نظرية (العالم الثالث)، أي وجود ثلاثة عوالم متميزة تماماً من الناحية الانطولوجية. يقول (بوبر): (العالم الأول) هو العالم الفيزيائي أو عالم الأشياء، و(العالم الثاني) هو ميدان التجربة الذاتية، ميدان الأحاسيس والأفكار، أما (العالم الثالث) فهو عالم الأقوال والنظريات والمشكلات والأحكام النقدية ومضمونها بالمعنى المنطقي... ويشير (بوبر) إلى أن تفاعلنا مع العالم الثالث يماثل تماماً التطور الحيوي. حيث يقول (بوبر)، إنه من خلال هذا التفاعل بين ذواتنا وبين العالم الثالث، فإن المعرفة الموضوعية تنمو... وتوجد مماثلة تامة بين نمو المعرفة والنمو البيولوجي، أي تطور النباتات والحيوانات[3].

---

(1) Popper, Kari Raimund, the Logic of Scientific Discovery, London, p.27.

(2) خليل، ياسين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، 1970، ص284.

(1) Popper, K. R. Objective Knowledge, Oxford University Press. London, 1979, p.109.

يلجأ (بوبر) إلى استخدام (مبدأ التكذيب) الذي يستند بدوره لمفهومه عن (نمو المعرفة العلمية) لأن مفهوم (النمو) حيوي وضروري لكل من جانبي المعرفة العقلية والامبريقية[1]. فطريقة نمو العلم هي التي تجعل العالم يميز بين النظريات التي لديه ويختار أفضلها، كما تتيح له الفرصة لإبداء الأسباب لرفض النظريات واقتراح الشروط التي لابد من توافرها، حتى يمكن القول عن أي نظرية إنها مقنعة.

حاول الفيلسوف الأمريكي (توماس س. كون) (1922–1996) T.Kuhn. في كتابه (بنية الثورات العلمية) أن ينهي إلى الأبد مرحلة (الوضعية). حيث يرى (كون)، أن العلم الذي يتم من خلاله تجميع الوقائع دون أي رابطة بينها، أو حتى ارتباطها بنظرية محددة، خاصة إبان المرحلة التي عرفت بسيادة المدارس الفكرية المتعارضة هو مايعرف لما قبل النموذج الإرشادي[2]. الوقائع في هذه الفترة تكون جزافية، ولاتوجد خطة أو بنية نظرية مقبولة. بيد أن واحدة من هذه المدارس تلقى قبولاً عاماً من قبل العلماء. وبالتالي يتأسس (النموذج الإرشادي) المسيطر.

وبعد سيادة النموذج الإرشادي، فإنه تسود فترة العلم القياسي Normal Science ، إذ يكون العلم (البحث العلمي) مزوداً بمثال ناجح، ولايسعى العلم إلى البحث عن ظواهر جديدة، وإنما إعادة صياغة الظواهر والنظريات وترتيبها، ولكن برؤية جديدة[3]. وأثناء سياق فترة العلم القياسي، تظهر نتائج غير مقبولة، فيدخل العلم في مرحلة (الأزمة). ثم مايلبث أن تأتى نظرية جديدة محل الأخرى القديمة، وهو ما يسميه(كون) (بالثورة العلمية). وهو يتعمد إدخال مفهوم سياسي إلى ميدان

(2) رشنباخ، هانز، نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، ص204– 205.
(3) صيام، شحاتة، علم اجتماع المعرفة وصراع التأويلات، مصدر سابق، ص75.
(4) تفادي، السيد، اتجاهات جديدة في فلسفة العلم، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثاني، أكتوبر/ ديسمبر، 1996، ص97.

العلم، لأنه يعتقد أن التحول الذي يحدث في نموذج إرشادي إلى آخر يوازي. إلى حد كبير التحول الذي يحدث من نظام سياسي إلى نظام سياسي آخر[1].

ففي المجتمعات تبدأ الثورة السياسية من تصاعد الإحساس لدى بعض القطاعات في المجتمع بأن النظام السياسي القائم لم يعد يصلح لحكم المجتمع، ولا لحل مشاكله أو لتلبية حاجاته. ولذلك تسعى تلك القطاعات إلى تغيير المؤسسات السياسية القائمة. وهنا تنشأ حالة صراع بين أنصار التغيير وأنصار النظام القديم. وبسبب عدم اتفاقهم على نموذج (معياري) للتغير يلجأ كل فريق إلى شن الحملات الإعلامية لإقناع الجماهير بتفوق نموذجه وقدرته على تلبية تطلعاتهم. وبالطريقة نفسها التي تحدث فيها الثورات السياسية تحدث الثورات العلمية، فالاختيار بين نماذج إرشادية متنافسة في عصر ما. وكالاختيار بين نظام بطليموس ونظام كونيكوس مثلاً. مثله مثل الاختيار الذي يحدث بين المؤسسات السياسية المتنافسة: ومثلما تنتصر القوى الأقدر على حشد الجماهير وإقناعها بأنها الأقدر على حل المشكلات، كذلك ينتصر في ميدان العلم[2].

بيد أن المقارنة بين الثورات السياسية والعلمية عند(كون) هو، أن النماذج الإرشادية لاتنتصر على بعضها عن طريق البراهين المنطقية والأدلة التجريبية، بل عن طريق حصول النموذج على موافقة المجتمع العلمي [3]. لأنه السلطة الأعلى التي تحسم المنافسة بين النماذج.

نفهم من الأفكار المطروحة لـ(كون) في بنية الثورات العلمية، أن نموذجه الإرشادي الذي يدفع به، يمثل أساس فكرة بنية الثورات العلمية، إذ على أساسه ينبذ فكرة التكذيب، وهو ماجعل (امري لاكتوس) (1922– 1974) A.Lakatos، يرى أن (كون) لم يع مايطرحه (بوبر)، إذ فهم فقط موقفه من

(1) كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد (168) الكويت، 1992، ص143.

(2) صالح، رشيد الحاج، المعرفة العلمية، مصدر سابق، ص51.

(3) كون، بنية الثورات العلمية، مصدر سابق، ص146.

الكذب الساذج، أو مايطلق عليه (لاكتوس) بمفهوم التكذيب الميثودولوجي الساذج Naïve Methodological Falsification وهو ماقدمه (بوبر) حينما رفض أفكار الوضعية المنطقية التي قدمت مصطلح التبرير Justification الذي تم تدعيمه من خلال الفروض التي تم تحقيقها إبان تأسيس النظرية العلمية[1].

حاول (لاكتوس) بادي ذي بدء أن يعيد لتاريخ العلم بناءاته العقلانية، واستخدم في ذلك قولاً مأثوراً لـ(كانط) يقرر فيه،(أن فلسفة علم بدون تاريخ علم خواء، وتاريخ علم بدون فلسفة عماء). إن المطلع على منهجية (لاكتوس) يجدها أن الاتجاهات العلمية التي شهدها الفكر الاجتماعي، تتمحور حول سيادة برنامج بحثي واحد، يسعى إلى تدشين بنية عقلانية جديدة[2].

ويتألف (برنامج البحث) من سلسلة متعاقبة من الأبحاث المنجزة من قبل باحث بمفرده أو أكثر، بحيث يتبع فيها قواعد منهجية معينة. والحقيقة أن (لاكتوس) أشار إلى القواعد كما لو أنها هي البرنامج ذاته. فقد يقول: ((يتألف البرنامج من قواعد منهجية: تدلنا بعضها على طرق البحث التي نتجنبها) (المساعد على الكشف السلبي)، أما البعض الآخر منه ا، فتدلنا على الطرق التي نسلكها((المساعد على الكشف الإيجابي))[3].

ويتألف النموذج الإرشادي من (نواة صلبة)، وتتكون هذه النواة من بعض الفرضيات العامة جداً، والتي تشكل القاعدة التي ينبغي للبرنامج (أو النموذج) أن ينمو ويتطور انطلاقاً منها. حيث تتشكل النواة الصلبة في الفلك الكوبرنيكي، مثلاً من فرضيتين وهما أن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس، وأن الأرض تدور حول محورها كل يوم. وفي الفيزياء النيوتونية تتشكل النواة الصلبة من قوانين الحركة وتصوره للجاذبية الكونية. والنواة الصلبة في المادية التاريخية لدى (ماركس) هي فرضية أن التغير الاجتماعي يجد تفسيره في صراع الطبقات، وهذه

---

(1) صيام، شحاته، علم اجتماع المعرفة، مصدر سابق، ص73-74.

(2) لاكتوس إمري، الأبحاث العلمية، ترجمة ماهر عبد القادر، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1997، ص97.

(3) تفادى، السيد، اتجاهات جديدة، مصدر سابق، ص102.

الطبقات تتحدد طبيعتها وتفاصيل الصراع بينها، في نهاية التحليل، بالبنية التحتية الاقتصادية[1].

يرى باول فيرأبند (1924– 1995) Feyerabend في كتابه (ضد المنهج) بإخبارنا أنه مشغول بمشروع (فوضوي). فهو يريد أن يناقش مسألة وذلك على العكس من النزعة الاستقرائية عند (نيوتن) والوضعيين المناطقة، والنزعة التكذيبية عند (بوبر) و(البوبريين)، ومنهجية برامج البحث العلمي عند (لاكتوس)، عدم وجود منهج مميز للبحث العلمي، إذا اتبعناه فسوف تؤدي إلى اكتساب ناجح للمعرفة. ومن ثم فهو يفضل (فوضى منهجية) Methodological Anarchy وعلى الرغم من أنه يسلم بأن (الفوضوية) قد لاتكون فلسفة سياسية جذابة، الا أنها فيما يعتقد، تعتبر دواء ناجحاً للأبستمولوجيا وفلسفة العلم.

أراد (فيرابند) أن يرسم صورة (لاعقلانية) للعلم، ينكر فيها أن هناك، أو من الممكن أن يكون هناك منهج علمي على الإطلاق، ولقد أشار (فيرابند) في العلم ((يفز العلماء والفلاسفة بل وعامة الناس، بأنها لم تكن (عقلانية)، إذ لم يكن العلماء يسلكون سلوكاً(عقلانياً)، ولم يكن (العقل) قوة محركة لهم، ولم يصدروا أحكامهم بصورة (عقلانية)[2].

ويترتب على (اللاعقلانية) و(التعددية النظرية) نتائج علمية واجتماعية شديدة الخطورة، إذ يدعو إلى تبنى (مذهب ابتكاري خاص Special creationism في مناهج التدريس، فبجانب البيولوجيا التطورية، وفيزياء الكم والنسبية، ينبغي ان يكون هنالك مكاناً للشعوذة، والتنجيم، ووخز الجسم بالإبر، كما ينبغي أن تكون هناك حركة كاملة في اختيار(نظام المعرفة) الذي يستصوبه المرء[3].

(1) شالمرز، آلان، نظريات العلم، ترجمة الحسن سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1991، ص87.

(2) تفادى، السيد، اتجاهات جديدة، مصدر سابق، ص107.

(3) المصدر نفسه، ص109.

كما أن (فيرابند) أوضح العلاقة بين السلطة الرسمية للدولة ومؤسساتها والعلم، حيث يرى أن الدولة تستخدم العلم، بغرض استنزاف الفوائض الاجتماعية، وتوزيع الثروات بطريقة قهرية، وهو مايعني أن العلم لايستقل عن الممارسات الايديولوجية والسياسية، ان ممارسة العلم وفق هذه التوجهات المشبوهة، وخضوعه لمراكز القرار السلطوي، جعل (فيرابند) يذهب بضرورة الفصل بين العلم والدولة، على غرار الفصل بين العلم والكنيسة في بواكير عصر الأنوار[1].

سادساً: الاتجاهات المعارضة للوضعية في الفكر الاجتماعي:

لقد تعددت ردود الفعل تجاه المذهب الوضعي، وبالتالي تعددت البدائل الإنسانية التي كان بعضها قديماً قدم الوضعية ذاتها في تاريخ الفكر الاجتماعي. بينما كان البعض الأخر أكثر حداثةً. ومع ذلك فإن اللهجة المشتركة التي جمعت بينهما، تمثلت في رفض التصور العلمي للدراسة الاجتماعية كما هو معروف في المذهب الوضعي.

حيث يرى (ماكس فيبر) (M.Weber (1864–1920، أن أية معرفة عن الواقع الاجتماعي هي دائماً معرفة من وجهة نظر معينة. وبذلك لا توجد ركيزة محايدة يمكن الاعتماد عليها لإدراك حقيقة العالم الاجتماعي إدراكا (موضوعياً)، بل إن المعرفة تحاط دائماً بسياج اجتماعي. ويذهب (فيبر) إلى الادعاء بأن القيم الثقافية في عصرنا قد اختلطت بالقيم العلمية. ولذلك فإن معايير الموضوعية المتضمنة في العلم تتميز بأنها ذات خلفية اجتماعية ولإدراك طبيعة (الأشكال الاجتماعية ذات المعنى Meaningful Social Forms[2].

لقد قامت الوضعية بشكل عام بتوجيه الفكر نحو موضوعات واقعية والارتقاء بدور التجربة في المعرفة. ومما لاشك فيه أن الوضعية قامت بتحطيم كثير من

(1) صيام، شحاته، علم اجتماع المعرفة، مصدر سابق، ص79.
(2) جابر. ساميه محمد، منهجيات البحث الاجتماعي والإعلامي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص196.

الخيالات اللاهوتية والميتافيزيقية وساعدت على تقدم التفكير، خاصة في مجال العلوم الطبيعية. الا أنها تعرضت للنقد من داخل وخارج المدرسة.

وفي الواقع فإن المنظور الوضعي قد أغفل جانباً هاماً في الدراسات الإنسانية هو موضوع التفاعل. فنلحظ أن الطريقة التجريبية في البحوث الاجتماعية والنفسية قد أدت إلى ترك مسائل مهمة في قيمتها بالنسبة لفهم النشاط الاجتماعي وتوجيهه. ومن هذه المسائل جانب العمليات الاجتماعية والنفسية التي تحدث حين يتم تغير كمي أو كيفي في ظاهرة اجتماعية، أو حين تقوم علاقات بين متغيرات في مواقف اجتماعية[1].

وقد هاجم فيلسوف العلم (ونش) Peter Winch الاتجاه الطبيعي. حين رأى أن تفسيرات الأفعال الإنسانية لايمكن أن تكون آلية أو ميكانيكية، كما أنه لاتوجد قوانين حتمية للأفعال الإنسانية أو لنتائجها، تستطيع عن طريقها التنبؤ بهذه الأفعال[2].

في ضوء ما سبق، يمكن أن نميز بين تيارين نظريين حكمتها دراسة الواقع الاجتماعي، الأول، هو التيار النظري الذي نهج طريق العلوم الطبيعية ومحاكاتها، ومدى ملاءمتها لفهم الواقع الاجتماعي، أما التيار الآخر، فهو التيار النظري الذي يأخذ موقفاً نقدياً من مناهج العلوم الطبيعية ويرفض محاكاتها. ويسلم بوجود اختلاف بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية اختلافا جوهرياً. حيث ان الباحث يدرس عالماً يتشكل من خلال المعاني التي تمثل بالنسبة له وسيلة لفهم الواقع الاجتماعي[3].

فالاتجاه الفينومينولوجي في علم الاجتماع ينظر إلى الواقع الاجتماعي بوصفه نتاجاً للنشاط الإنساني بما يتضمنه من تفسيرات ومقاصد. في حين يذهب

(1) أنور، علا مصطفى، التفسير في العلوم الاجتماعية، دراسة في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988، ص193.

(2) المصدر نفسه، ص193.

(3) الحسيني، السيد، الاتجاهات الفينومينولوجية الحديثة في علم الاجتماع (تحليل نقدي) مجلة عالم الفكر، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثاني – أكتوبر ديسمبر، الكويت، 1996، ص76.

الوضعيون الاجتماعيون إلى أنه يمكن الفصل بين العالم الاجتماعي من ناحية وأساليب تفسيره وفهمه من ناحية أخرى[1].

بيد أن التطور الذي طرأ على الفكر البشري خاصة فيما يتصل بتفعيل دور العقل في إدراك الأشياء، يعود إلى الفلسفة الفينومينولوجية (الظاهراتية) التي استبدلت مفاهيم كثيرة مثل الوجود بالقوة والوجود بالفعل، والجوهر والماهيه، بما يسمى بالظاهرة والشيء في ذاته ومفهوم الحياة. لقد كان لظهور الفينومينولوجيا على يد (إدموند هوسرل) (1859– 1938) E. Hasserl أثراً كبيراً في طرح مفهوم الحياة، والذي من خلاله استند على الوعي الإنساني الذي يرتبط بالأشباه الخارجية و الظواهر التي تمثل موضوعاً للوعي. ولما كان الوعي هو وعي بالذات، وأن الموضوع هو الظاهرة. فالعلاقة بينها هي علاقة معرفة، تلك التي تأتي من خلال الذات وتخبر عن دلالة الظاهرة[2].

لقد وجه (هوسرل) انتقادات إلى علم الاجتماع بسبب ميله إلى محاكاة العلوم الطبيعية عند النظر إلى الواقع الاجتماعي. لقد أفتقد بذلك علماء الاجتماع القدرة على الإحساس بظواهر الوعي. وينطبق النقد أيضا على المناهج التي يستخدمونها في دراسة الواقع الاجتماعي. ويستطيع هؤلاء العلماء إنقاذ عملهم من السطحية إذا ما حاولوا العودة إلى ظواهر الوعي باستخدام الفهم الفينومينولوجي[3]. أي أن الفينومينولوجيا تحاول الوصول إلى أعماق الخبرات الإنسانية باستخدام أسلوب منهجي محدد هو (الرد الفينومينولوجي) Phenomenological Reduction.

أما الفرد شوتز (1899– 1959) A. Schutz، فقد سعى إلى وجود إمكانية سوسيولوجية على أساس فينومينولوجي لدراسة الواقع الاجتماعي. وقد تأثر (شوتز) في سعيه لتحقيق هدفه بكل من (دلتاى) (1833– 1911) Dischutz في رفضه للتفسيرات السببية المستخدمة في العلوم الفيزيائية كنموذج لاكتساب

(1) المصدر نفسه، ص76.
(2) نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1995، ص35.
(3) الحسيني، السيد، مصدر سابق، ص77.

معرفة بالعالم الإنساني القائم على التوصل بين الذوات، وتأثره بتحليلات (ريكرت) (1863– 1934) Rickert عن الفارق المنهجي بين كل من العلوم الفيزيائية والعلوم الاجتماعية، وكذلك تأثره ب(هنرى برجسون) (1859– 1941) B.Henri و (هوسرل) بتطبيق فينومينولوجيا (هوسرل) على مشاكل الواقع الاجتماعي.

وقد أكد (شوتز) أن الهدف التأويلي لعلم الاجتماع هو فهم المعنى الذي يضيفه الفاعل على فعله، أي المعنى الذي يملكه بصدده ولا يعني هذا مجرد فهم للمعاني الموضوعية للفعل الاجتماعي. ونجده يستخدم تعبيرات (كالعالم المحسوس) و(عالم الحياة اليومية)، كمجال اجتماعي يمكن دراسته باستخدام الفهم الفينومينولوجي، حيث يرى أن الفعل Action وليس الإدراك الحسي Perception هو الأساس الملائم للعلوم الاجتماعية[1].

كما أكد (شوتز) على منهج (الفهم الذاتي) وأعتبره أداة فعاله للتعامل مع الواقع الاجتماعي، فهو ليس مجرد طريقة يستخدمها العالم الاجتماعي، ولكنه الشكل التجريبي الذي يستطيع من خلاله معرفة العالم الاجتماعي الثقافي، ويؤيد (شوتز) كون منهج الفهم (ذاتي)، وأن الخلاف بين المدافعين والناقدين باستخدام هذا المنهج يرجع في نظره إلى الفشل في التمييز بين الفهم باعتباره شكلاً تجريبياً للمعرفة العامة للشؤون الاجتماعية أو موضوعاً إبستمولوجياً أو طريقة معينة للعلوم الاجتماعية[2].

وقد ميز (شوتز) بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية من حيث المنهج في دراسة الظواهر الاجتماعية. حيث في العالم الطبيعي نستطيع أن نقوم بجمع الوقائع التي لا يمكننا فهمها، وكل ما يمكن أن نفعله هو الإشارة إلى بعض الافتراضات الأساسية عن العالم، بينما في العالم الاجتماعي نريد أن نفهم الظواهر الاجتماعية، ولانستطيع أن نفهمها وهي بعيدة عن مكانها في نسق الدوافع

(1) W. Kelly and A. Tallon, Reading in Philosophy of Man, New York McGraw-Hill Book Co.,1972. p.198.
(2) A. Schutz, Concept and Theory Formation in the Social Sciences. p.240.

والأهداف والوسائل والخطط الإنسانية، أي بعيدة عن نسق مقولات الفعل الإنساني[1]. وبهذا الصدد، رفض (شوتز) مبدأ الوحدة المنهجية بين العلوم، حقيقة أنه رأى خطأ اعتبار الاختلافات الأساسية بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية راجعة إلى وجود منطق مختلف لكل فرع من فروع المعرفة. إن وحدة العلم ليست إلا حالة خاصة في موضع أكثر شمولا لم يتعدّ أي من العلماء المؤيدين للإجابة عليه، وهو كيف تكون المعرفة العلمية ممكنه؟ وما هي افتراضاتها المنطقية؟ إن (شوتز) يرى أن الفلسفة الفينومينولوجية مهدت الطريق لمثل هذا البحث، وقد تشير نتائجها إلى أن الأساليب المنهجية التي طورتها العلوم الاجتماعية من أجل إدراك الواقع الاجتماعي أكثر ملائمة من تلك الأساليب الموجودة في العلوم الطبيعية في التوصل إلى اكتشاف المبادئ العامة التي تحكم المعرفة البشرية[2].

إذا كان الجانب الفينومينولوجي الوصفي والاجتماعي قد تغلب لدى (شوتز) على الجانب الفينومينولوجي المتعالي، فقد أعتبر البعض (شوتز) أكثر ميلاً إلى الاتجاه الوجودي في الفينومينولوجيا، إلى جانب فلاسفة الوجودية من أمثال (جون بول سارتر) (1905– 1980) J. P. Sartre و(موريس ميرلوبونتي) (1908– 1971) M.Ponty. وقد أسهم هؤلاء الفلاسفة في الفينومينولوجيا، عن طريق تقديم تصورات مختلفة للشرط الوجودي للإنسان، وذلك كرد فعل على تأكيد (هوسرل) على الماهية. وقد أجمع للوعي شكل عضوي، وموقف اجتماعي مرتبط بكليات أخرى، أي أجمع به وجود مشخص وليس ماهية غير شخصية كما كان (هوسرل) يرى[3].

وهكذا يتضح لنا أن الاتجاهات المعارضة للوضعية، ابتداء من أتباع الفهم الذاتي وانتهاء بالوجوديين، رفضت الشكل الاستنباطي العلي أو السببي للتفسير ونادت بالفهم بوصفها طريقة مميزة لدراسة الإنسان في المجتمع. كما أن هدف الفينومينولوجيا يقوم على الوصف وليس التفسيروأ التحليل.

---

(1) أنور، علا مصطفى، مصدر سابق ص264.

(2) A. Schutz, Concept and Theory Formation in the Social Sciences. Op.cit, p.249.

(3) علا مصطفى، مصدر سابق، ص261.

إن مثل هذه المقولات هي التي دعت كل من (سارتر) و(ميرلوبونتي) بالتوصل إلى طرق يستطيع الوعي الإنساني عن طريقها كشف واختبار كافة الحواجز، ليس فقط عن طريق التفكير وإنما ركز(سارتر) على المستوى الوجودي. وبينما كان حديث (هوسرل) عن (الذات المتعالية) غير ذي تأثير عل ى الكيان الوجودي للإنسان أو (الذات) أو(الأنا)، فإن حديث(سارتر) وأعماله كان لهما تأثيرهما الواضح على الإنسان الوجودي. في حين أهتم (ميرلوبونتى) بطبيعة الفينومينولوجيا في حد ذاتها. لقد رأى أن مهمته الأساسية في الفلسفة هي إعادة بناء الطابع التطوري وليس الثوري. وبالتالي فإن الانتقال من العالم إلى الماهيات كما ترى طريقة التوقف عن الحكم، يحتاج إلى أن ينسجم مع وصف الوعي في هذا العالم كما تطالب الوجودية[1].

ويذهب (ميرلوبونتى) إلى اعتبار الإدراك الحسي (فعلاً) تدرك بمقتضاه الموضوع إدراكاً مباشراً دون أدنى وساطة، بل دون حاجة إلى أدنى تفسير. وليس (الجسم) بمثابة نقاب يتوسط بيننا وبين العالم، بل هو أداتنا في الامتزاج بالعالم والالتصاق بالأشياء. وليس من شك في أن اهتمام(ميرلوبونتى) بالإدراك الحسي هو الذي جعله يستمسك بواقعه (الوجود في العالم) وهو الذ ي حدا به إلى عدّ المعطيات المباشرة للإدراك الحسي واقعة حقيقية سابقه على كل تنظيم عقلي أو(تركيب ذهني) [2].

أما (مارتن هيدجر) (1889–1976) Heidegger .M مفكر الوجود جاء من الفينومينولوجيا الهوسرلية، ووجد ضالته في المنهج العقلي الواقعي الصارم الذي قدمته له هذه الفلسفة. إلا أن (هوسرل) أنكر أن تؤدي فلسفته إلى نزعة وجودية، أو موجودية على حد تعبير (هيدجر). إلا أن (هيدجر) استخدم هذا المنهج وطبقه بكل شفافية على الموضوع، ما الوجود؟

(1) المصدر نفسه، ص264.

(2) زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة، 1968، ص563

إن مهمة الفيلسوف في نظر (هيدجر) هي إيضاح معنى الوجود، حيث يجب على كل إنسان أن يسأله، أو يطرحه على نفسه ليصبح إنساناً، لأن من يبحث في الوجود، لابد أن يتساءل أيضا: ومن أنا ؟ أنا الباحث في الوجود، نعم إنني لست أنا الوجود، إلا أنني مع ذلك موجود وأشارك في الوجود، وعلى صلة به .... ولهذا يقول (هيدجر) في مؤلفة الشهير (الوجود والزمن)، إن ماهية الإنسان جوهرية بالنسبة إلى حقيقة الوجود [1]. إن وعي الإنسان بأنه موجود ويمتلك وعيا هو يسميه (هيدجر) ب(الآنية) أو الوجود هناك، أي الوجود في العالم.

كما حظيت مشكلة الحرية باهتمام كل مفكري الوجودية، فالحرية في نظرهم ليست ماهية ملازمة للإنسان فحسب، بل هي جوهر وجوده أيضاً، الإنسان هو حريته. إن الإنسان الحر في نظر (هيدجر) هو ذلك الفرد، الذي تنصب ذاته في مواجهة المجتمع. ذلك لأن مسألة الحرية عنده ليست تحرير البشر من قسوة الطبيعة، وظلم الطبقات الحاكمة، بل هي نصائح وإرشادات تهيئ للفرد لأن يبحث عن حريته في أعماق (وجوده) الذاتي وفقط[2].

يعود تطوير فن التأويل وصياغته إلى (هانز جورج جادامير) (1900– Gadamer 2002)، حيث تقوم محاولته على ضرورة إبراز العنصر المشترك الذي يقوم بربط العلائق المتشابكة بين أنماط القيم المختلفة، وإظهار أن الفهم، ومن ثم التأويل، ليس سلوكاً ذاتياً، بل ممارسة تضرب بعمقها في صميم كينونة الإنسان، لذا يميز (جادامير) بين قوة الحقيقة التي يتضمنها الفهم وبين تقنيات البحث عنه وفيه.

وثمة مبدأ أساس في نظرية (جادامير) ينص على أن الفصل بين الفهم والتأويل محض تجريد. ويصر عل ى أن الفهم كله ينطوي على تأويل. إذ يمثل التأويل عنده عملية تاريخية تعبر باستمرار ع ن المعنى المحتجز في الفهم، وعن معنى هذا الفهم لذاته، وبذا لايكون الفهم محض تكرار للماضي، بل يسهم بمعنى

(1) أحمد، إبراهيم، إشكالية الوجود والتقنية عند مارتن هيدجر، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2006، ص72.

(2) المصدر نفسه، ص141.

الحاضر[1]. ونجد(جادامير) يقدم تصوراته في كتابه(الحقيقة والمنهج) الذي يعكس نزعة إنسانية واضحة خاصة فيما يتصل بحالة المعرفة الحاضرة في مختلف الموضوعات.

كما أن التأويل لدى (جادامير) لا يعد من وجهة نظره منهجاً للعلوم الإنسانية، بل هي فقط محاولة لفهم ماهية العلوم عبر وعيها المنهجي، وما يرتبط بتجربتنا عن العالم من خلال اللغة. فاللغة دائماً ما ترتبط بالفهم الشامل الذي يكون حاضراً بشكل دائم في علاقتنا سواء الفردية أو الجماعية عبر عملية الحوار والاتصال بالآخر، أو ما يسميه بالممارسة الاجتماعية الحية[2].

بيد أن (جادامير) يؤكد أن من غير الممكن وجود اتصال أنساني حقيقي من غير وجود الانفتاح لدى المرء، وبذلك يقول ((إن انتماء أحدهم إلى الآخر Zueinandergehren يعني، في الوقت نفسه، القدرة على سماع أحدهما للأخر دائماً Ayf-einander-Horenkonnen))[3]. وهذا لايعني بالضرورة الاعتقاد بما يقوله الشخص الآخر اعتقادا غير نقدي بل ينبغي على المرء، وانطلاقا من احترام الشخص الآخر، أن يحمل التزاما نحو التفكير بما يقال وبأعمق صورة ممكنة إذ يعد الفهم شكلاً من أشكال الحوار دائماً، فهو حدث اللغة الذي يحدث فيه الاتصال.

أما موقف النظرية النقدية التي بدأت في إطار مدرسة فرانكفورت النقدية للبحوث الاجتماعية والتي تأسست في عام 1923 كمركز للبحوث ذات التوجه الاشتراكي. فإن النظرية النقدية كانت بمثابة إرهاص فعلي لعديد م ن التيارات الأخرى المؤثرة، والتي عرفها الفكر الإنساني في الفن والعلم الاجتماعي على

(1) ديفيد كوزنزهوى، الحلقة النقدية – الآداب والتاريخ والهرمينوطيقا الفلسفية، ترجمة وتقديم، خالدة حامد، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص81.

(2) جيانى فاتيمو، نهاية الحداثة – الفلسفات العدمية والتفسيرية في ثقافة مابعد الحداثة، ترجمة فاطمة الجيوش، وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ص137– 138.

(3) ديفيد كوزنزهوى، مصدر سابق، ص95.

السواء على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين. فنقدها للتفسير القائم، الذي يقوم على الشرح، هو الذي أعطى دفعة لحركة التأويل، التي تسعى إلى التفسير ومن ثم الفهم. ليس هذا فحسب، بل إن النظرية النقدية كانت إرهاصاً حقيقياً لفكرة مابعد الحداثة.

ويعد مقال النظرية التقليدية والنظرية النقدية لـ(ماكس هوركهايمر) (1895–1973) M.Horkheimer بمثابة الوثيقة الأساسية في توضيح التوجه الفكري للنظرية النقدية. والنظرية التقليدية كما يفهمها (هوركهايمر) هي ما تعبر عنه بشكل واضح وصريح الاتجاهات الوضيعة، فالاتجاه الوضعي كما يعبر عن نفسه في علوم الإنسان والمجتمع يعالج نشاط الكائن البشري على أنه شيء أو موضوع خارجي داخل إطار من الحتمية الميكانيكية، أما النظرية النقدية المعارضة للوضعية – فهي ترفض النظر إلى الوقائع الاجتماعية على أنها أشياء، ومن ثم فهي ترفض فكرة أن الظاهرة الاجتماعية تكون خارجية بالدرجة نفسها التي تكون عليها بالنسبة للعالم[1].

وعلى هذا النحو، فالنظرية النقدية ترفض طابع الحياد الذي تتسم به النزعة الوضعية، وتحاول في المقابل أن تطرح فكراً لايفصل بين النظرية والممارسة، أو بين الواقع والقيمة، والماركسية هي الفلسفة التي تعطي أفضل توضيح نظري لفهم الواقع الإنساني.

بيد أن (هوركهايمر) ينتقد الوضعية بوصفها فلسفة للعلم وخاصة في شكل الوضعية المنطقية أو الامبريقية المنطقية لدائرة(فينا). ونقده موجه أساساً ضد كل الاتجاهات العلمية التي تقلل من شأن الفلسفة وتعلى من قيمة المنهج العلمي بحيث يصير شاملاً للعلوم الطبيعية والاجتماعية معا.

أما هربرت ماركيوز (1898–1979) H. Marcus، فهو يركز نقده على وضعية (كونت)، إذ ينظر (ماركيوز) إلى الوضعية بوصفها مذهباً للثورة المضادة[2].

---

(1) حسن، محمد حسن، النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص108.

(1) المصدر نفسه، ص113.

بينما انطلق (تيودور أدورنو) (A.Theodor (1903–1969 في نقده للنظرية الوضعية التقليدية من نفس المسلمات التي صاغها (هور كهايمر)، وهو يركز بصفة خاصة على نقد فكرة استغراق الوضعية في الحديث عن الواقع أو خارجية الظواهر. ويناقش (أدورنو) محاولات تشبيه علم الاجتماع بالعلوم الطبيعية، فيؤكد أن الفروق بين الطبيعة والمجتمع، تحتم وجود فروق في منهجية العلوم التي تدرس كل منهما. فالعلوم الطبيعية علوم دقيقة لأن الطبيعة منتظمة ومنسقه، أما المجتمع فليس بهذا القدر من الاتساق والانتظام، فالمجتمع مليء بالتناقضات، فهو ينطوي على ما هو عقلي وما هو غير عقلي، على الانتظام وعلى عدم الانتظام...ولهذا فان مناهج علم الاجتماع وإجراءاته يجب تطويعها وصياغتها بحيث تأخذ هذه المسائل في اعتبارها. أما إذا زعمت أنها تريد أن ترتفع فوق مستوى التناقض، ومن ثم تتجه صوب منهج العلوم الطبيعية، متشبهة بها، فان ذلك هو يقيم مفارقة حاسمة بين مناهج العلوم الاجتماعية، وبين طبيعة الموضوع الذي تدرسه هذه العلوم. فلسوف تعجز هذه المناهج عن (فهم) الطبيعة النوعية المتميزة (للمجتمع) بوصفه يحوي كل ضروب التناقض وعدم التناقض في آن واحد[1].

وترى النظرية النقدية أننا نستطيع من واقع فكرة العقلانية أن نستنتج الشكل الأساسي للمجتمع العقلاني، فنحن جميعاً بفضل كوننا بشراً تمتلك خاصيته أو إمكانية القدرة على التفكير العقلي الرشيد. هذا يعني نقد النظرية التقليدية في المعرفة سواء نظر اليها بوصفها نسقاً عقلانياً، ميتافيزيقياً أو بوصفها علماً أداتياً، والبحث عن الموجهات الخفية المحددة لمصيرها وتوجهاتها الأساسية.

والفلسفة عند أصحاب مدرسة فرانكفورت، طريقة الحياة، أي أن الفلسفة تخدم العلم، فالعلم ينتج المعرفة، والفلسفة تقوم بالمساعدة في حل المشكلات التي

(2) محمد، محمد علي، تاريخ علم الاجتماع – الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1986، ص556– 557.

تعترض طريق العلم كالمشكلات المتعلقة بالتصورات والمفهومات، أي المتعلقة بالجانبٍ النظري مِن العلم[1].

ويعتبر العقل الأداتي أسلوب التفكير المهيمن في العالم الحديث، وهو الأسلوب الذي بات يحكمها العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية سواء بسواء. وقد توصل (لوكاش) (1885– 1971) إلى الاستنتاج ذاته إلى حد كبير، حينما كان يصف أثر (التشيؤ) في الفكر. أما مدرسه فرانكفورت فترى أن جذور العقل الأداتي ترجع إلى ما هو أبعد بكثير من المراحل الأولى لتطور الرأسمالية، ومثلما رجع (ماكس فيبر) أصول الروح الرأسمالية وعاد بها من خلال المعتقدات المسيحية إلى المعتقدات اليهودية، وجد (أدورنو وهوركهايمر) أصول العقل الأداتي في الديانة اليهودية أيضاً، وقد تبلور هذا العقل الأداتي في عصر التنوير ووقعت خلال هذه الفترة عملية تحويل الطبيعة إلى أداة Instrumentalisation of Nature[2].

لقد تركز نقد فلاسفة النظرية النقدية بالأساس على ما سبق أن أسميناه (بالعقل الأداتي) وعقلانيته العلمية والتقنية المهيمنة على المجتمع الصناعي المتقدم وذلك بغرض مجاوزته إلى (عقل موضوعي) يفتح أفاقاً جديدة للعقل تعيد له الحيوية والفعالية والانضباط التي تميز بها عبر قرون طويلة. حيث أن غاية (العقل الأداتي) هو المحافظة على وجود الذات في حين أن غايات العقل الموضوعي أشمل، وتتعدى المحافظة على الذات لتتجه إلى البنية العقلانية الموضوعية، فالعقلانية بهذا التحديد نظام موضوعي يمكن أن يكون وعاء تنطوي فيه أشياء ومفاهيم متعددة بما في ذلك حياة الإنسان ونزوعه الفطري للبقاء[3].

وقبل أن نغلق محور الاتجاهات المعارضة للوضعية في المعرفة الاجتماعية، لابد لنا أن نتعرج إلى أعمال عضو آخر من مدرسة فرانكفورت وهو

---

(1) إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، العدد(244) الكويت، ابريل (نيسان) 1999، ص316.

(2) المصدر نفسه، ص318.

(1) عمر مهيبل، مصدر سابق، ص308.

(يورغن هابرماس) 1929– ....) (J. Habermas) وهو من أهم ممثلي الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت (النظرية النقدية) الاجتماعية.

في ضوء اهتمام (هابرماس) بمسألة المصالح الإنسانية، فإنه يفعل عملية الفهم باعتبارها إحدى آليات الاتصال اللغويLanguage Communication في سياق الحياة اليومية، التي نستطيع من خلالها فهم المعرفة الإنسانية التي ترتبط بانعكاس النفس مع الرغبة في التحكم في الذات وتحقيق الاستقلال. إنه على وفق ذلك يرى (هابرماس) أن ثمة علاقة وثيقة بين (النظرية) Theoryو (العمل) Praxis، فالنظرية يجب ألا تكون بمعزل عن العمل أو الحياة. ومن هذا المنطلق، حاول أن يكشف جذور المعرفة (الكلية) داخل مجال الحياة الإنسانية. وحاول ربط المعرفة بـ(المصلحة) Interest، وبين الصلة الوثقى بينهما في العلوم التجريبيةِ – التحليلية، والعلوم الهيرمينوطيقية – التاريخية، والعلوم النقدية.

وأساس النقد الاجتماعي عند (هابرماس) يكمن في الهدف الذي تتشد التطور الاجتماعي أن يتحرك صوبه، والمتمثل في مجتمع عقلاني يشارك فيه الجميع على قدم المساواة. وأن يتجسد حركة العقلنه المتواصلة في جميع مجالات النشاط الإنساني المختلفة.

ويرى (هابرماس) أن السوسيولوجيا من أكثر العلوم الاجتماعية ارتباطا بإشكالية العقلنة. وهذا يرجع إلى طبيعة البنية الداخلية التي تميز السوسيولوجيا عن غيرها من العلوم الاجتماعية، زد على ذلك، بقاء السوسيولوجيا على اتصال دائم مع مشاكل المجتمع في شموليتها وعمقها. فقد حافظت على مرونتها وحيويتها كنظرية تنظر إلى المجتمع نظرة تكاملية. وتبقى على الطرح المتجدد لإشكالية العقلانية بوصفها محركاً محورياً لبقية المحاور المشكلة للمجال الاجتماعي.

وفي ضوء كل ماسبق من الأفكار، فقد طرأ تحولاً مماثلاً في السنوات الأخيرة على توجهات الفكر الاجتماعي، الذي راح يبحث عن الأسباب الحقيقية وراء هزيمة الدراسات الاجتماعية الامبريقية التي حذت حذو العلوم الطبيعة، مما دفع البعض إلى إعادة بناء مقولاتها أو ما يسمى بالتركيب Reconstruction

وذلك لتجاوز الإجماع الأرثوذوكسي التقليدي. فقد حاول (أنتوني جيدنز) (Giddens،A 1938....) أن يؤدي مفهوم الذات ويجعله محور ارتكاز نظريته التركيبية، فالفهم الخاص حول الفعل يأتي من خلال تكوين السلوك الإنساني من جزأين، الأول هو القدرة، والآخر هو المعرفة، فالآخر يتصل بالأشياء التي يدركها الفرد عن أفعاله وعن المجتمع، وهما معا يرتبطان بممارسة الإدراك واللاإدراك.

والمتأمل فيما يقدمه(جيدنز) في إطار نظريته التركيبية، ومحاولة توجيه النظرية الاجتماعية، هي محاولة لفك الروابط بين النظرية الاجتماعية والعلوم الطبيعية، أي إن النظرية التركيبية جاءت بديلاً للنظرية للوضعية، إذ من خلالها يحاول أن يربط النسق بما يحيط به من أنساق. ناهيك عن تحليله لوظائفه في ضوء ظروفه التاريخية.إذ يرى (جيدنز) أن على النظرية الاجتماعية ألا تنعزل عن ردود الأفعال، تلك التي ربطها بمصطلح الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي وعملية إدراك الفعل الاجتماعي [1]. إن إعادة إنتاج الذات يعني اتجاه نحو نفسها، بما يعني تحررها من سيطرة التقنية التي يسعى عالم اليوم إلى تسييدها بل وتأييدها.

وهناك دراسات نظرية ظهرت في الربع الأخير من القرن العشرين، والتي أخذت موقفاً رافضاً من الأطروحات النظرية التي تحاكي العلم الطبيعي، منها دراسة (هينجرز) Hingers كأطروحة دكتوراه، حيث حاول الباحث أن يستبدل المناهج القياسية بالمناهج الكيفية، والتي تتصل بشكل خاص بمنهج تحليل الخطاب في علم اجتماع المعرفة. إن ارتباط هذا المنهج بفلسفة العلم، ساعده على إبراز التشويش الذي حمله خطاب العلم خاصته فيما يتصل بالتفسيرات الكمية والسببية، التي تعوق عملية الكشف عن الأسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية ناهيك عن الوقوف على دقائق وتفصيلات التفاعلات الاجتماعية الحقيقية[2].

أما (سوبيس) Suppes، فهو الآخر وقف موقفاً نقدياً من مواقف العلم الوضعي، أو ما يسمى بالعلوم الصعبة. حيث يرى أن المعرفة الميتافيزيقية قد

---

(1) صيام شحاته، مصدر سابق، ص172.

(2) Hingers, R., Invation and Negation in Philosophy of Science, The Case of Inconsolability. P.HD. Dissertation University of Kansas, 1986, p.13.

سببت أزمة في المعرفة السوسيولوجية وعطلت من نموها وتطويرها تحت مسألة الموضوعية. فإنه يرى أنه آن الأوان أن يتحول العلم الاجتماعي إلى علم كيفي، لايهتم بما هو ظاهر وحسب، وإنما أيضا بما هو خفي في آن. وبذلك يتطلب أيضا تحولاً عن الأدوات المنهجية العظيمة التي لا تأتي إلا بتفسيرات عِلِّيَّة سببية يفترضها الباحث بطريقة قبلية، أي أن يبحث فيما يتعقد فيها، وليس ماهو قائم في الوجود[1].

سابعاً: العلم معرفة نسبية اجتماعية:

شهدت بداية القرن العشرين انقلابا فيزيائياً لاكتشاف النظرية النسبية، حيث أدى ذلك إلى تغير أسس الفيزياء النظرية، لقد تحطمت صورة العالم العلمية، النيوتونية، التي بقيت سائدة حتى نهاية القرن التاسع عشر. وعلى أثر هذا الانقلاب طرح الفلاسفة والفيزيائيون معاً أسئلة ملحة مهمة: ما هو مدلول التقدم في عملية المعرفة الفيزيائية ؟ هل الإنسان قادر على معرفة الطبيعة معرفة موضوعية أم أن معرفته معرفة نسبية تتغير باستمرار؟ هل يتم بلوغ المعرفة عن طريق المشاهدة السلبية للطبيعة أم إن نشاط الإنسان هو المحدد الأول لهذه المعرفة؟ هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عليها في هذا المحور.

يرى (جاستون باشلار) (1884– 1941) G.BachcIard أنه ينبغي أن ننظر إلى فلسفة العلوم بوصفها تحديداً للقيم الأبستمولوجية وترتيباً لها، بحيث تتحول أيه مناقشة نظرية حول قيمة النظر دون الأخذ في الحسبان النتائج العلمية إلى جدال عقيم لايخدم العلم والمعرفة العلمية ... وعندما نتأمل مظاهر الجدة التي يميز العلم المعاصر نجد أنها تتمثل في الدور المتنافي للآلة في المرحلة المعاصرة بحيث صارت تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تشكيل وعينا. فالمعرفة المعاصرة والحياة

(1) Suppes P., Models and Methods in the Philosophy of Science, Cluwer Academic Publishers, Stanford University, U.S.A, 1993, p.55.

المعاصرة برمتها فيها من التعقيد والتداخل ما يجعلها تتجاوز الجهود الفردية لأي كان مهما تكن قدراته[1].

في العقد الثامن من القرن العشرين، عُرضت تساؤلات كثيرة، تحاول تبيان طبيعة أثر العوامل الاجتماعية في العالم، وتبين كيف تسربت البنية المنطقية العقلية للعالم، وتقدمت مسألة البحث عن السلطة الاجتماعية القابعة خلف ظهور نظريات العالم والمصالح المرتبطة بها. والتأثيرات الاجتماعية المحتملة لتلك النظريات. وأن هناك نظريات علمية لم تأخذ حقها في العلم لأسباب اجتماعية وليست علمية. فهناك نظريات علمية لم يهتم المجتمع بها ويعترف بقيمتها إلا بعد عقود طويلة من الزمن بعد اكتشافها، ويعود ذلك إلى ظهور الإطار الاجتماعي المناسب الذي يسمح بقبول تلك النظريات.

هناك مسؤولية للعلماء تجاه المجتمع، فالمسؤولية الاجتماعية تنطوي على العلماء الذين لديهم التزام بأن يجروا بحثاً ذا قيمة اجتماعية. بعض العلماء ربما يرفضون فكرة المسؤولية الاجتماعية، على أساس أن العلماء يتعين عليهم السعي للمعرفة من أجل المعرفة وترك التدبر في النتائج الاجتماعية للبحث العلمي للساسة والجمهور.إن مسؤولية التأثيرات الاجتماعية للعلم إنما تقع على عائق وسائل الإعلام وعلى الساسة وعلى جمهور الشعب، وليس على العلماء. ورغم ذلك الرفض فإن هناك أسباباً عديدة تجعل العلماء ملزمين بالمسؤولية تجاه التأثيرات الاجتماعية للبحث العلمي. فأولاً، وعلى الرغم من أن العلماء غير مسؤولين عن النتائج غير المتوقعة للبحث، فإنهم مسؤولون عن النتائج المتوقعة: وثانياً، العلماء أعضاء في المجتمع وعليهم واجبات خلقية تجاه الآخرين[2].

تفيد المسؤولية الاجتماعية العلم وذلك عن طريق زيادة التأييد الشعبي له، أي إن العلم (المسؤول اجتماعياً) يلقي تأييداً شعبياً، والعلم غير المسؤول اجتماعياً يدمر تأييد العامة له. وعن طريق خدمة المجتمع، يستطيع العلماء أ ن يحاربوا الصور السلبية لهؤلاء العلماء الذين يتنصلون من المسؤولية الاجتماعية.

---

(1) عمر مهيبل، إشكالية التواصل، مصدر سابق، ص72–71.

(1) ديفيد ب. رزنيك، مصدر سابق، ص99–100.

تقوم النسبية الاجتماعية على التأكيد على أن مضمون العلم يخضع لها من خلال سحب البساط المنطقي العقلي من تحت أقدامه، وسبيلها إلى ذلك إيجاد عناصر اجتماعية داخل (النواة الصلبة) للعلم، بحيث تؤكد عدم وجود شيء داخ ل العلم لايخضع للتفسير الاجتماعي. ويقوم التحليل الاجتماعي لمضمون المعرفة العلمية على التأكيد على نقطتين أساسيتين:

الأولى : أن الثورات العلمية، والتطورات العلمية عموماً. لاتستجيب لأزمة داخل العلم كما بين (كون)، بقدر ما يستجيب لأزمة اجتماعية تنعكس بدورها على العلم.

الثانية: أن مفاهيم العلم ذات طبيعة اجتماعية وليست ذات طبيعة عقلية تجريبية.

ففي النقطة الأولى حاول علماء الاجتماع تفسير الثورة الفيزيائية التي انتقلت بموجبها الفيزياء من السببية، إلى اللاسببية، ومن الموضوعية المطلقة إلى الموضوعية الاحتمالية، عن طريق عوامل اجتماعية. ذلك أن تخلي العلماء عن السببية، مع بدايات القرن العشرين، يعود إلى أسباب ايديولوجية تمثلت في الأزمة التي عصفت بأوروبا. ولاسيما ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، وما خلفته هذه الأزمة من حالة اليأس والتشكك والرغبة في إعادة النظر بمختلف القيم السائدة ومنها (العقلانية العلمية)[1].

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية، التي تؤكد المضامين الاجتماعية للمفاهيم العلمية، فإن انتشار موضة البحث عن (الأشعة)، وهي مفاهيم تقوم بتصنيف الظواهر الحسية، مع بداية القرن العشرين، ساعد على ترسيخ أنموذج في التفكير العلمي يقوم على هوس البحث عن الأشعة. ومثل هذا الهوس أدى إلى رؤية العالم الفرنسي (بلوندال) للأشعة (N) على الرغم من اعتقاد العلماء الأمريكيين بعدم وجودها. أما العلماء الفرنسيون فيرجعون عدم اعتراف الأمريكيين بالأشعة (N) إلى أن من مصلحة الأمريكيين عدم الاعتراف لأن ذلك سيجرهم إلى الاعتراف بالتفوق الفرنسي. هكذا يتضح أن المصالح والعلاقات الاجتماعية تلعب دوراً في إعطاء المفاهيم العلمية قبولاً ضمن الجماعات العلمية، بحيث أصبحت العوامل

(2) فينك، دومينك، علم اجتماع العلوم، مصدر سابق، ص155.

الاجتماعية تدخل في بناء الحقائق العلمية، ولذلك فإن الفيزيائيين ينحتون مفاهيم مختلفة ومتباينة لاترتبط بالاختبارات ذاتها بقدر ماترتبط بالمعتقدات الشخصية للعلماء[1].

وبصدد العلاقة بين العلم والعوامل الاجتماعية، يقول(فيرابند).. إن قوة العلم وتفوقه، لاتعود إلى مسألة البحث، وإنما نتيجة للضغوط السياسية والاقتصادية والعسكرية...) مما جعل (فيرابند) يهدد بهذا التحالف غير المقدس الذي دفع الايديولوجية الرأسمالية أن تسخر العلم لأهدافها، ومن ثم جنوح قيم العقلانية والليبرالية والديمقراطية الغربية عن معناها الواسع والحقيقي . مما ساهمت وعملت على ممارسة وتكريس وقهر، والعلماء ينافقون السلطة ويمارسون نوعاً من الابتزاز والاستحواذ، لأنهم يشاركون في استغلال القوي للضعيف. إن إنتاج المعارف لم تكن خالصة لوجه العلم ونفع البشر، بل إنها جاءت لمسايرة قوانين السوق واللبرلة، وعمليات الاحتكار والاستثمار، وتحقيق مصالح شخصية ونفعية ضيقة، بل قل وأنانية أيضا[2]. مما جعل (فيرابند) يذهب بضرورة الفصل بين العلم والدولة على غرار الفصل بين العلم والدين في بواكير عصر الأنوار[3].

وفي ضوء ماسبق، نرى الطابع النسبي للمعرفة العلمية، وأنها غير مستقلة عن المجتمع، وتتأثر العلم بالعوامل الاجتماعية والشخصية (الذاتية) والنفسية والأخلاقية. وينبغي على العلماء أن يتحملوا المسؤولية الاجتماعية من أجل الوفاء بالالتزامات الخلقية واستبقاء وتأييد الجماهير للعلم.

---

(1) المصدر نفسه، ص167.

(2) Feyerabend, P., Science in a Free Society, the Ford Press, London, 1975, p.136.

(3) Ibid, p.89.

1430هـ/2009م

The Role of Social Factors in Scientific Knowledge

Asst. Prof. Dr. Tahir H. Zebari*

Abstract

The studies that emphasize on the impact of society on the specific types of knowledge go back to Auguste Comte (1798-1857) who connected certain social formations to precise kinds of knowledge: religious, philosophical, and scientific positivism. What can be understood from this law is that (Comte) believes that the thought (knowledge) is the engine and creator of society. He called for getting rid from all religious and metaphysical kinds of thought and recourse to methodology of natural sciences to reach to results that are similar to the results of natural sciences. He intended to discover the laws which regulate the life of individuals and societies. This approach takes us to the positive situation of science.

The contemporary studies do not intend to prove the idea that the content of scientific knowledge (scientific or experimental sciences) is empty from human and social elements. Subsequently, (decisive experiment) is no longer a crucial concept of science. There were many theories and ideas occurred and accepted without scientific reasons. These theories did not submit to decisive experiment. The

* Dept. of Sociology/ College of Arts/ University of Salahaddin.

knowledge with its different forms, whether they are humanities or natural, is affected by society's form and social status.

From this perspective, the study adopts the idea that asserts that theories and contemporary scientific discoveries submit to the influence of social factors in the content of knowledge. Thus, the science is affected by human impact which includes the society's form, political interests, economic interests, social interests, ethical principles, and economic conflicts.

The study also examines the critiques proposed about the role of social factors in the content of scientific knowledge. It discusses these issues in order to insist on the role of social elements and conditions in the content of scientific knowledge. The study consists of the below topics:

1. The relationship between science and knowledge.
2. Sociology of knowledge
3. Sociology of science
4. The social knowledge and imitation to science
5. The situation of social knowledge in post positive-logical tendencies
6. Opponent tendencies for positivism in social thought.
7. The science is a relative social knowledge